ثقافات الشعوب



عروس الجنّ

الحكايات الشعبية للهنود الحمر

جمع: دبليو تي لينرد
ترجمة: سامر أبو هواش

عروس الجنّ

الحكايات الشعبية للهنود الحمر

جمع:
دبليو تي لينرد

ترجمة:
سامر أبو هواش





عروس الجنّ

الحكايات الشعبية للهنود الحمر

© هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، المجمع الثقافي
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر

عروس الجنّ: الحكايات الشعبية للهنود الحمر

الطبعة الأولى 1431 هـ 2010 م

E98. F6. L312 2009
Larned, W.T. (William Trowbridge)
[American Indian Fairy Tales]

عروس الجنّ: الحكايات الشعبية للهنود الحمر/ جمع دبليو. تي. لينرد؛ ترجمة سامر أبو هواش.
- ط.1.- أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2009.
138ص: 19x12.5 سم. (سلسلة ثقافات الشعوب).
تدمك: 2- 978-9948-01-324
ترجمة كتاب: American Indian Fairy Tales
1 - القصص الشعبية الأمريكية. 2 - الحكايات الأمريكية. أ- أبو هواش، سامر- 1972. ب- العنوان.

مراجعة وتحرير: سامر أبو هواش
إخراج وتصميم: أحمد عبد الله التتان



info@kalima.ae
www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ ،
فاكس: 462 6314 2 971+



www.adach.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ .
فاكس: 059 6336 2 971+

المحتويات

هذه السلسلة

تأتي هذه السلسلة التي تجمع تراث الشعوب من الحكايات والأساطير والخرافات الشعبية، منسجمة مع الأهداف والقيم التي اختطتها لنفسها مبادرة «كلمة» منذ البداية، كمشروع رائد للترجمة في العالم العربي. تلك القيم والأهداف التي تسعى أبوظبي إلى تجسيدها، لتشيع ثقافة التسامح والحوار، وبناء جسور التواصل بين شعوب الأرض وحضاراتها ، وتعزيز العمق الثقافي الجامع بين مختلف الأعراق والجنسيات والثقافات، وجمعها تحت سقف واحد، هو سقف الثقافة والمعرفة والكلمة التي تجمع ولا تفرّق.

وليست حكايات الشعوب هذه، التي تقدّم للمرة الأولى لقرّاء العربية بمثل هذه الشمولية والكثافة والاتساع، إلا ترسيخاً لهذا المشترك الإنساني الجامع. وكأن ما اصطلحت البشرية على تسميته «عولمة» منذ عقدين من الزمان أو نيّف، كان متحقّقاً بالفعل منذ مئات بل آلاف السنين، عبر حكايات نجدها تتنقّل بحرية من أرض إلى أرض، ومن لسان إلى آخر، إذ تطرأ عليها تعديلات هنا أو هناك، لتناسب ثقافة هذا الشعب أو ذائقة تلك الأمة، أو ظروف تلك الجماعة. وفي بعض الأحيان نجد الحكاية نفسها - مع تغيير في أسماء الناس والأمكنة - تروى في أقاصي الشرق، على نحو ما تروى في أقاصي الغرب، أو

شمال الأرض أو جنوبها. فإذا كانت الحكايات تتمتع بميزة أساسية فهي قدرتها على اختراق الحدود الجغرافية والعرقية والنفسية والسياسية والدينية واللغوية، لتولد في كل مرة، وعند كل قوم من الأقوام، بصورة خاصة وفريدة، تشير إلى خصوصية الذات.

وهكذا، تبقى الحكايات سرّ هذه الأرض الواحدة، نبتتها أو لنقل زهرتها الفريدة، التي نبتت من تربتها الخصبة الواحدة، ونمت تحت سمائها الشاسعة الواحدة، لتجوب آفاق الدنيا، مبدّلة ربما أثوابها وألوانها، ولكن محتفظة دوماً بجوهرها الإنساني الفسيح والعميق.

وإننا إذ نقدّم هذه الحكايات، زهرات الأرض الفريدة هذه، في باقة واحدة ثرية الأجناس والألوان، فإيماناً منا بأننا على اختلاف ثقافاتنا وحضاراتنا، أبناء هذه الأرض الواحدة، وبأن ما ترويه جدّة ما لأحفادها في أصقاع القطب الجنوبي، من حكايات تؤكد قيم الخير والحب والعدالة والسلام، ترويه - وإن بلغة أخرى - جدة أخرى في أصقاع أخرى من الأرض، وهذا ما يجعل الحكايات الشعبية ميراثاً أصلياً للبشرية جمعاء، بقدر ما هي ملك أصلي لكلّ شعب من الشعوب وثقافة من الثقافات.

د. علي بن تميم

مدير مشروع «كلمة» للترجمة

تقديم

لا يسعنا ونحن نقرأ الحكايات الشعبية لهنود أمريكا الحمر، أو سكانها الأصليين، إلا أن نشعر بتلك الطاقة الشعرية الكبيرة الكامنة فيها. فعلى الرغم من شدّة بساطة هذه الحكايات، الموضوعة أصلاً لكي تروى للأطفال قبل النوم، شأن جميع حكايات شعوب العالم المختلفة، فإنها تحفل بالرموز والإشارات، الساعية إلى تفسير العالم بكلّ مظاهره المادية والطبيعية ونوازع البشر المتصارعة فيه، كما تفسير عوالم الغيب وألغازه وخوارقه، وإقامة صلة ما معه، نجدها تتمثّل أولاً وأخيراً في السرد نفسه. ذلك أن تحويل العالم وما بعده إلى حكاية يجعله في نهاية المطاف مكاناً أليفاً للعيش والفهم، تماماً كترويض الحيوانات الضارية، أو مواجهة تقلّبات الطبيعة الشرسة وتحوّلاتها.

لكن مع كل هذا، وعلى الرغم من الجانب الوعظي والتعليمي الكامن في بعض هذه الحكايات، فإن ما يبرز أولاً وأخيراً هو لغتها السحرية أو الشعرية والإطار التخييلي الذي ترسمه هذه

اللغة. فالراوي هو شيخ هندي هزيل يدعى لاغو، لا يعبأ كثيراً بالمنطق، بل قد يناقضه في بعض الأحيان، لصالح المفاجأة السحرية واللحظة المذهلة.

وقوة هذا الـراوي، كما جاء في تعريف لينرد له في هذا الكتاب، تنبع من حكمته ومعرفته، ومن أنه جاب العالم ورأى الكثير من الخوارق والأمور العجيبة، كما من كونه يحفظ الكثير من قصص أسلافه، إذ كان والده راوياً وكذلك جده..إلخ. أما بالنسبة إلى مارغريت كومبتون (التي جمعت الكتاب الثاني الذي ترجمناه ضمن هذه السلسة ويجمع أيضاً حكايات الهنود الحمر بحسب الراوي نفسه)، فإن لاغو هو في حدّ ذاته شخصية أسطورية مختلقة، ويكاد يكون واحداً من شخصيات الحكايات نفسها، فهو يتمتع بقدرات خارقة، لا تتوافر لغيره من الرجال، ومع ذلك تبقى قصصه مختلقة، فلا يصدّقها الكثيرون، لكنهم يحبّون سماعها. في الحالين فإن أهمية الراوي هي في جمعه بين متعة السرد وكونه يقدّم، كرجل حكيم، من خلال حكاياته هذه، أجوبة عن الكثير من الأسئلة الغامضة حول نشأة عناصر الطبيعة والخلق وطباع الحيوانات وعلاقة الهندي الأحمر بهذا كله.

لا تقيم هذه الحكايات حدوداً بين الواقع والخيال ولا بين المرئي واللامرئي. بل تكاد تكون إحدى وظائفها خرق هذه الحدود. ما يبدو خارقاً كالرعد والعواصف، وكحركة الكواكب والنجوم، وانقلاب الليل والنهار، والولادة والموت، وعلى الرغم من أن الهدف الأساسي هو السعي إلى تفسيره، يمثل في هذه الحكايات كشأن من شؤون الحياة اليومية، كأمر يلمس باليد (حتى الشمس يمكن لمسها باليد، ويمكن إحداث ثقب في سقف السماء للإتيان بالصيف إلى الأرض...)، فتذهب إحدى الشخصيات من الحيوانات للانتقام من الشمس لأنها هبطت كثيراً وأحرقت جلده، في حين نجد في حكاية أخرى أن إحدى النجمات قررت النزول إلى الأرض والعيش بين الناس، فاجتمع حكماء القرية لكي يقرروا ماذا يمكن أن يفعلوا بهذا الأمر تماماً كما يمكن أن يجتمعوا للتشاور بشأن أيّ مسألة من مسائل القبيلة.

هذا الاختلاط بين البشر والكائنات الأخرى من حيوانات حقيقية وجن وكائنات متخيلة وأرواح مقدّسة ونباتات وأشجار وحتى بحار وبحيرات وأنهر، يقف وراء ما أسميته بالطاقة الشعرية في حكايات الهنود الحمر. لكن أبعد من ذلك فإن

هذه الحكايات تكشف أو تشير إلى جزء كبير من ثقافة السكان الأصليين وأنماط عيشهم وتفكيرهم، وهم هنا ينتمون إلى قبيلة أوجيبوي التي عاشت في شمال الولايات المتحدة الأمريكية. فنتعرّف على نظرة هذه الأقوام أو «الشعوب» إلى قيم مهمة كالشر والخير والحب والزواج والموت والصداقة والحرب والبطولة والخيانة والجشع..إلخ، وإلى بعض القوانين والأعراف والتقاليد التي تحكم التعامل مع الكثير من هذه الأمور. فترسم لنا الحكايات صورة صادقة إلى حدّ بعيد عن بشر حقيقيين، لا «بدائيين» ولا «بربريين» يحتضنون قيماً عزيزة راسخة تشكّل هادياً لهم في فهم الحياة والتعامل معها.

تجدر الإشارة إلى أن كلا المؤلفين (أي لينرد وكومبتون) اعتمد في وضع الحكايات على ما نشره الأنثروبولوجي والرحالة الأمريكي هنري سكولكرافت (1793–1864)، وهو من أوائل من بحثوا في ثقافة السكان الأصليين وميراثهم الشعبي وسعوا إلى تدوينه. وقد أعانت سكولكرافت في ذلك زوجته جاين جونستون التي تنتمي لجهة أحد والديها إلى قبيلة الأوجيبوي وتعتبر أول أديبة أمريكية تنتمي إلى السكان الأصليين، وقد علمت زوجها لغة الأوجيبوي وساعدته على جمع المادة التي

قام بتدوينها سواء خلال عمله كرحالة وأنثروبولوجي أو كوكيل للحكومة الأمريكية في شؤون الهنود.

نشير أيضاً إلى بعض الفروقات بين الحكايات التي وضعها لينرد وتلك التي وضعتها كومبتون. فعلى سبيل المثال يدخل لينرد الراوي لاغو في صلب الحكايات، كما يسعى إلى وضع الأسماء مثلما تلفظ بلغة الهنود الحمر، ثم وضع ترجمتها. أما كومبتون فتكتفي بالتعريف بالراوي لاغو في بداية الحكايات من دون أن تأتي على ذكره بعد ذلك، كما أنها لا تضع أسماء الشخصيات مثلما ترد في الأصل بل تكتفي بترجمتها.

سامر أبو هواش

الراوي لاغو

لا أحد يضاهي الشيخ «لاغو» حكمة ومعرفة.

فما من هنديّ أحمر رأى أو سمع بقدر ما رأى هو أو سمع. فهو يعرف جميع أشجار الغابات والحقول، ويفهم لغة الطير والحيوان. وقد عاش حياته سارحاً في الغابات، ملاذ الوعل البريّ، أو خائضاً في مياه البحيرة، على قاربه المكسو بلحاء البتولا.

كان الشيخ لاغو، فضلاً عما رآه رأي العين، يحفظ كذلك الكثير من الحكايات الغريبة العجيبة التي سمعها عن جده، الذي بدوره سمعها عن جدّه، وهكذا دواليك وصولاً إلى الزمن الذي كان العالم فيه لا يزال فتيّاً وغريباً. حينما كان السحر يملأ الدّنيا.

كان الشيخ لاغو المفضّل لدى الأطفال. فلم يكن ثمة من يضاهيه براعة في العثور على أصداف الوامبام الرائعة الملونة، التي تتحوّل عقوداً تزيّن أعناق الفتيات الصغيرات، أو يدلهنّ

أين يمكنهن العثور على الأماليد الصغيرة التي يستطعن بأصابعهن الرشيقة تحويلها إلى سلال. أما الصبية، فكان لاغو يصنع لهم الأقواس والسهام؛ الأولى من شجر الدردار، التي يمكن ليّ أغصانها كثيراً من دون أن تنكسر، أما السهام القوية والمستقيمة فمن خشب السنديان الصلب.

لكن أهم من هذا كله، أحب الأطفال لاغو من أجل حكاياته: كيف حصل طائر أبو الحنّاء على صدره الأحمر؟ وكيف وجدت النار طريقها إلى الغابة، لكي يتمكن الهندي من إضرامها ثانية عبر حفّ عصوين ببعضهما؟ ولماذا يتمتع القيّوط، ذئب البراري، بفطنة تفوق الحيوانات الأخرى، ولماذا ينظر دائماً خلفه؟ وحده الشيخ لاغو يستطيع الإجابة عن كل هذه الأسئلة.

كان الشتاء أوان الحكايات. حين يعلو الثلج وجه الأرض، ويأتي «كا - بيب - أون - أوكا»[1] هادراً من مسكنه في أرض الجليد، ويشرق القمر البارد في السماء المصقعة، كان هذا وقت اجتماع الهنود في الوقَب[2]. عندئذ كان الشيخ لاغو يقعد قرب النار المتوهّجة، ويحتشد حوله الصغار.

(1) ريح الشمال (م).
(2) الوقب Wigwam أو wickiup: كوخ بيضاوي الشكل يصنعه الهنود الحمر من القصب ويغطونه بجلود الحيوانات أو الحصر المصنوعة من هذه الجلود. من الآن فصاعداً سنكتفي باستعمال كلمة «الكوخ» (م).

«هـووو، هـووو!»، يزمجر «كا - بيب - أون - أوكـا».
ويتطاير الشرر من اللهب، ويضع لاغو حطبة أخرى. «هووو، هووو!». يا له من شيخ مزعج «كا - بيب - أون - أوكا» هذا! يكاد المرء يراه، بشعره الطويل المكسوّ بالجليد. إذا لم يكن الكوخ شديد الصلابة فيمكن أن يهدمه، وإذا لم تكن النار قوية يمكنه إخمادها. لكن الكوخ صنع خصيصاً لمثل هذه الأوقات؛ والغابة القريبة فيها من الحطب ما يدوم إلى الأبد. ولهذا، يكشّر «كا - بيب - أون - أوكا» عن أنيابه صارخاً: «هووو، هووو!».

اقتربت إحدى الفتيات الصغيرات الأكثر جزعاً من الأطفال الآخرين، من الشيخ لاغو ووضعت يدها على ذراعه، قائلة: «آه يا لاغو، أتسمع هذا الصوت! أتحسبه يؤذينا؟».

أجابها لاغو: «لا تخافي فـ كا - بيب - أون - أوكـا لا يستطيع أن يؤذي الشجاع ولا من تسكن البهجة قلبه. إنه يزمجر ويحدث الكثير من الضوضاء، إلا أنه في صميم قلبه مجرّد جبان كبير، والنار ستخيفه وتجعله يفرّ عما قريب. لَمَ لا أخبركم قصة عنه».

والقصة التي رواها لاغو هي التي سأرويها لكم الآن، قصة كيف تمكن «شين- غي - بيز» من خداع ريح الشمال.

«شين- غي- بيز»
يخدع «كا - بيب - أون - أوكا»

في قديم الزمان، حين لم يكن يستوطن الأرض سوى قلة من البشر، عاشت في الشمال قبيلة من الصيّادين. كان أفضل أنواع الأسماك يتوافر في الصيف، عالياً هناك في الأماكن المصقعة التي لا يستطيع أن يقطنها أحد في زمن الشتاء. ذلك أن أمير «أرض الجليد» تلك كان شيخاً هرماً لئيماً يسميه الهنود «كا– بيب – أون– أوكا»، الذي يعني في لغتنا ريح الشمال.

ورغم امتداد «أرض الجليد» لآلاف وآلاف الأميال، فإنّ «كا – بيب – أون – أوكا» لم يكن راضياً. ولو تُرك الأمر له لما بقي عشب أو أشجار خضراء في أيّ مكان، ولاكتسى البياض العالم من أقصاه إلى أقصاه، ولتجمّدت الأنهار، واحتلّ الثلج والجليد ربوع الأرض قاطبة.

لكن لحسن الحظ كانت قواه محدودة. فعلى الرغم من جبروته وشراسته لم يكن صنواً لـ «شا – وون– داسي»، ريح الجنوب، الذي يسكن الأرض الجميلة، أرض زهرة دوّار الشمس.

وحيث يقطن ريح الجنوب يقطن الصيف. وحين ينفخ أنفاسه في الأرض ينبت البنفسج في الغابة، وتتبرعم الزهور البرية على امتداد البراري الصفراء، ويروح ذكر الحمام ينادي على أنثاه. كان ريح الجنوب من ينبت البطيخ والعنب الأحمر، ومن ينضج الذرة في الحقول، ويكسو الغابات بحلتها الخضراء، ويجعل الأرض جذلة رائعة. ثم، حين تقصر أيام الصيف في الشمال يتسلق ريح الجنوب أعلى التلة، ويملأ غليونه العظيم ويقعد هناك، حالماً ومدخّناً. ساعة بعد ساعة يجلس ويدخّن، ويرتفع الدخان على هيئة بخار، ويملأ الهواء بسديم ناعم حتى تبدو الهضاب والبحيرات مثل هضاب أرض الأحلام وبحيراتها. لا يعود ثمة ريح تهبّ، ولا غيمة في السماء، بل سكون عظيم يملأ الأرض. وعندئذ لا يعود من مكان في العالم يوازي روعة هذا المكان. إنه صيفنا الهندي.

كان الصيادون الذين يضعون شباكهم في الشمال يكدّون في العمل، لأنهم يدركون اقتراب الوقت الذي سيغفو فيه ريح الجنوب، وسينقضّ عليهم «كا – بيب – أون – أوكا» الشرس ويقودهم بعيداً. وهذا ما حدث حقاً! ففي صباح أحد الأيام غطّت طبقة رقيقة من الجليد المياه التي ألقوا فيها شباكهم؛ وبدأ

يلمع في الشمس الجليد الذي اعتلى سقوف أكواخهم.

كان هذا إنذاراً كافياً. ازدادت سماكة الجليد، وبدأ الثلج يسقط بقطع كبيرة. وهرع القيّوط، ذئب البراري، في فروته الشتوية الواسع، باحثاً عن مخبأ. وصارت تُسمع دمدمة وأنيناً آتيان من بعيد.

صاح الصيادون: «كا – بيب – أون – أوكا في طريقه إلينا! سرعان ما سيصل إلينا. لقد آن أوان الرحيل».

أما شين– غي– بيز، أي الغطّاس[1]، فقد اكتفى بالضحك.

كان «شين– غي– بيز» دائم الضحك. كان يضحك حين يصطاد سمكة كبيرة. وكان يضحك حين لا يصطاد شيئاً على الإطلاق. لا شيء يستطيع أن يعكّر مزاجه.

قال لرفاقه: «ما زال الصيد وافراً، يمكنني إحداث فتحة في الجليد، والصيد بخيط بدلاً من الشبكة. فلمَ أكترث لأمر كا – بيب – أون – أوكا الهرم؟».

نظروا إليه متعجّبين. صحيح أن «شين– غي– بيز» كان

(1) Diver: معنى الاسم الهندي، على اسم أيّ من الطيور التي تغطس في الماء لصيد الأسماك (م).

يمتلك بعض القوى السحرية، ويمكنه أن يبدّل شكله إلى بطّة، وقد رأوه يفعل ذلك؛ ولهذا لقّبوه بالغطّاس، لكن كيف سيمكّنه ذلك من أن يواجه غضب «كا - بيب - أون - أوكا» الرهيب؟

فقالوا له: «يستحسن بك المجيء معنا. إنّ كا - بيب - أون - أوكا يفوقك قوة بكثير. فأضخم أشجار الغابة تنحني له. وأسرع الأنهار تتجلّد تحت لمسته. ما لم تكن قادراً على تحويل نفسك إلى دبّ أو إلى سمكة، فلا فرصة لك على الإطلاق».

بيد أن الغطّاس اكتفى بالضحك بصوت أعلى، وقال:

«إن فروتي التي أعارني إياها أخي القندس، والقفاز الذي أعارني إياه ابن عمي فأر المسك، سيحميانني نهاراً، وفي كوخي ما يكفي من الحطب الكبير. فليقترب كا - بيب - أون - أوكا من ناري إن كان يجرؤ».

فغادر الصيادون بأسى لأنهم كانوا يحبّون الغطّاس الضاحك، وحقيقة الأمر أن أحداً منهم لم يتوقّع رؤيته ثانية.

بعد رحيلهم استأنف الغطّاس عمله على طريقته. أولاً تأكد من أن لديه الكثير من اللحاء الجاف والأماليد وإبر الصنوبر وقوداً لناره حين يعود إلى كوخه في المساء. صحيح أن الثلج قد

ازداد كثافة، لكنه صار صلباً إلى حدّ أن الشمس لم تعد قادرة على إذابته، وبات في وسع شين- غي- بيز السير عليه من دون أن يغرق. أما بالنسبة إلى الأسماك فكان يعرف جيداً كيف يصطادها عبر فتحات أحدثها في الجليد؛ وليلاً صار يأوي إلى كوخه جارّاً خيطاً طويلاً من هذه الأسماك، مغنياً أغنية ألفها بنفسه:

يا «كا – بيب – أون – أوكا» الهرم

فلتأت وتحاول إخافتي،

رغم أنك كبير وعاصف

فمصيرك مثلي الفناء!».

وعلى هذه الحال وجده «كا – بيب – أون – أوكا»، وهو يخوض في الثلج ذات غروب.

صاح «كا – بيب – أون – أوكا»: «هووو، هووو! أيّ كائن وقح يمشي على قدمين يتجرأ على البقاء هنا بعد أن طارت الإوزة البرية ومالك الحزين جنوباً؟ سنرى من هو سيّد أرض الجليد هذه. في هذه الليلة سأشق طريقي إلى كوخه، وأخمد ناره، وأنثر الرماد في الأرجاء. هووو، هووو!».

أقبل الليل؛ مكث «شين- غي- بيز» في كوخه قرب النار المتوهجة. وأيّ نار كانت! كل حطبة كانت كبيرة إلى درجة أن تدوم قمراً[1] كاملاً. تلك كانت طريقة الهنود الحمر الذين لا يستعملون ساعات لاحتساب الوقت. بدلاً من أن يقولوا أسابيع أو أشهراً، تجدهم يقولون «قمراً»، وهو المدّة من قمر جديد إلى آخر.

كان «شين- غي- بيز» يشوي سمكة طازجة شهية اصطادها في ذلك اليوم، متلمّظاً بشفتيه وفاركاً يديه استمتاعاً بها. كان قد مشى مسافات طويلة في ذلك اليوم، بحيث غمر قلبه السرور لجلوسه أمام النار المطقطقة الدافئة. يا لغباء رفاقه، جعل يفكر، إذ غادروا هذا المكان في بدايات الشتاء حيث السمك الوفير.

أخذ يحدّث نفسه: «يعتقدون أن كا - بيب - أون - أوكا يمتلك شيئاً من السحر، وأن أحداً لا يمكنه مقاومته. لكنني أقول إنه مجرد رجل مثلي. صحيح أنني لا أملك قدرته على احتمال البرد، لكنه في المقابل لا يملك قدرتي على احتمال الحرّ».

أعجبته هذه الفكرة فبدأ يضحك ويغني:

«يا «كا - بيب - أون - أوكا» يا سيد الجليد

---

(1) القمر: يوم كامل، 24 ساعة، بحسب أعراف الهنود الحمر (م).

حاول أن تجلّدني إن كنت تراني

مع أنك تهبّ حتى التعب

لكنني آمن هنا قرب نيراني!».

كان شديد البهجة حتى إنه بالكاد سمع هدير الريح. جاء الثلج سميكاً وسريعاً ثمّ تكوّم حول الكوخ في كومات كبيرة. لكن بدلاً من أن يزداد البرد داخل الكوخ صار الثلج أشبه ببطانية سميكة منعت الهواء من الدخول.

سرعان ما اكتشف «كا - بيب - أون - أوكا» خطأه، فاشتاط غضباً، وصرخ عبر المدخنة صرخة رهيبة هادرة من شأنها أن تبثّ الذعر في قلب أيّ رجل عادي. أما «شين- غي- بيز» فقد ضحك فحسب. كان الصمت هائلاً في تلك النواحي الشاسعة فلم يجد مانعاً من بعض الجلبة.

ردّ صارخاً: «هوو، هوو! كيف حالك يا كا - بيب - أون - أوكا؟ عليك ألا تصرخ كثيراً وإلا انفجرت وجنتاك».

سرعان ما اهتزّ الكوخ من قوة الضربة التي وجهها الريح إليه، وجعلت ستارة الباب المصنوعة من جلد الثور تهتزّ بقوة شديدة.

راح ينادي «شين– غي– بيز» بمرح: «تعال يا كا – بيب – أون – أوكا، تعال ونل بعض الدفء. لابدّ من أن البرد قارس في الخارج؟».

عند سماعه هذه الكلمات الساخرة اندفع «كا – بيب – أون – أوكا» إلى الستارة واخترقها وشقّ طريقه إلى الداخل. آه، يا لذاك الصقيع الذي ملأ الكوخ الدافئ كالضباب.

ادّعى «شين– غي– بيز» أنه لم يلاحظ شيئاً. وتابع الغناء ثم استوى في مكانه، وألقى حطبة أخرى إلى النار. كانت حطبة كبيرة من شجر الصنوبر اضطرمت بقوة أجبرت «شين– غي– بيز» على الابتعاد شيئاً عن النار، مراقباً «كا – بيب – أون – أوكا» بزاوية عينيه. وما رآه أضحكه ثانية. فقد كان العرق يتصبّب من جبين «كا – بيب – أون – أوكا». وبدأ الجليد والثلج يختفيان بسرعة من شعره. وكما يذوب رجل الثلج الذي يصنعه الأطفال في شمس مارس الحارة، كذلك بدأ يذوب «كا – بيب – أون – أوكا» الهرم! لم يكن من شك في ذلك! كان «كا – بيب – أون – أوكا» الرهيب يذوب. أصبح أنفه وأذناه أصغر، وبدأ جسده ينكمش. وإذا ما بقي في هذا المكان مدة أطول فإن ملك أرض الجليد لن يعود أكثر من بركة صغيرة موحلة.

قال «شين- غي- بيز» بصوت حاد: «تعال اقترب من النار، لابدّ من أن البرد يخترق عظامك. اقترب أكثر ودفئ يديك ورجليك».

لكنّ «كا - بيب - أون - أوكا» كان قدّ فرّ خارجاً من الكوخ بأسرع مما جاء.

ما إن أصبح في الخارج حتى أنعشه الهواء البارد، وعاوده الغضب. بما أنه لم يكن قادراً على تجليد «شين- غي- بيز» فقد صبّ جام غضبه على كل ما واجهه في طريقه. تحت وطأته صار الثلج جليداً؛ وتكسرت غصون الأشجار الهشة تحت وطأة أنفاسه؛ وهرع الثعلب إلى جحره، وبحث القيّوط الجوّال عن أول مكان يلوذ به.

مجدداً، شقّ طريقه إلى كوخ «شين- غي- بيز»، وصرخ عبر المدخنة: «اخرج ولاقني هنا في الخارج إن كنت تجرؤ، تعال وقاتلني هنا في الثلج. وسنرى من السيد عندها!».

فكّر «شين- غي- بيز» ملياً في الأمر، وقال لنفسه: «لابدّ من أن النار قد أوهنت قواه، وجسدي دافئ. أعتقد أنني أستطيع أن أتغلّب عليه. وبعدها لن يعود لإزعاجي ثانية، وسأستطيع البقاء

هنا قدر ما أشاء».

خرج مُسرعاً من الكوخ، وجاء «كا - بيب - أون - أوكا» لمواجهته. ثم حصل عراك عظيم تكسّر على وقعه الجليد العظيم.

تعاركا طوال الليل، وخرجت الثعالب زاحفة من جحورها، وجلست في دائرة على مسافة آمنة لمشاهدة المعركة. كان الجهد الذي يبذله «شين- غي- بيز» كفيلاً بإبقاء جسده دافئاً. ثم بدأ يحسّ «كا - بيب - أون - أوكا» وهو يزداد ضعفاً ووهناً. ولم تعد أنفاسه الجليدية رياحاً قوياً، بل مجرد تنهيدات واهنة.

أخيراً ارتفعت الشمس في الشرق، وافترق المتقاتلان وهما يلهثان. لقد هُزم «كا - بيب - أون - أوكا». بعويل يائس استدار وفرّ مبتعداً. بعيداً، بعيداً إلى الشمال فرّ، وصولاً إلى أرض «الأرنب الأبيض»؛ وفيما يمضي، ظلّت ترن وراءه ضحكة «شين- غي- بيز». ذلك أنه في وسع الفرح والشجاعة أن يهزما حتى ريح الشمال.

الصبي والبنت في الغيوم

كان الراوي لاغو جالساً ذات مساء في ركنه المفضل، ساهماً في النار المصطلية كأنه يحلم.

في أوقات كهذه يعرف الأطفال أنه لا يجدر بهم مقاطعته بالأسئلة أو أن يلحّوا عليه بسرد حكاية ما. فهم يعرفون أن لاغو يسترجع في فكره الأمور الغريبة التي سمعها، والأشياء الرائعة التي رآها؛ وأن الحطبات المشتعلة والجمرات تتخذ أشكالاً غريبة هو وحده يفهمها، وأنهم إذا لم يقاطعوه فسيبدأ وحده بسرد حكاية جديدة.

بيد أنه في هذه الأمسية بالذات، مع أنهم انتظروا بصبر ولم يخاطب واحدهم الآخر إلا همساً، فقد ظلّ لاغو ثابتاً في مكانه وكأنه تمثال حجري. بدأوا يخشون أنه نسيهم، وأنه سيحين أوان النوم من دون حكاية. وأخيراً خطر على بال «نجمة الصبح»[1] الصغيرة، التي كانت دائماً تطرح الأسئلة، سؤالاً لم يسبق لها طرحه.

---

(1) نوع من الزهور يتفتّح في الصباح (م).

فقالت: «لاغو!». ثم صمتت، خشية أن تزعجه.

عند سماعه صوتها استفاق الرجل كأنما كان في رحلة طويلة إلى الماضي.

«ماذا هنالك يا نجمة الصبح؟».

«لاغو، أتعرف ما إذا كان الجبل دائماً هنا؟».

نظر إليها الشيخ باهتمام. مهما كانت الأسئلة صعبة أو غير متوقعة فلاغو دائماً تسرّه الإجابة عنها. لم يكن يقول قطّ «إنني مشغول جداً فلا تزعجوني» أو «انتظروا حتى وقت لاحق». لذا حين سألته «نجمة الصبح» هذا السؤال بالتحديد، أومأ برأسه الحكيم قائلاً: «أتعرفين، لطالما طرحت على نفسي هذا السؤال بعينه: أكان الجبل دائماً هنا؟».

صمت قليلاً ونظر ثانية إلى النار، كأنه سيجد الجواب هناك إذا ما نظر مدة كافية. وأخيراً نطق ثانية: «أجل، أظن أنه من الصحيح أن الجبل لطالما كان هنا، الجبل والتلال. لقد صنعت حين صنع العالم، منذ زمن بعيد، بعيد جداً؛ وقد أخبرتكم من قبل قصة صنع العالم. لكن ثمة هضبة واحدة عالية لم تكن موجودة هنا دائماً. بل ظهرت فجأة كالسحر. أسبق أن أخبرتكم قصة

الصخرة الكبرى، وكيف كبرت وكبرت، وحملت الصبي والبنت إلى الغيوم؟».

هتف الأطفال بصوت واحد: «لا، لا! لم تخبرنا البتة هذه القصة. احكها لنا الآن».

وهذه هي قصة «الصخرة الكبرى» مثلما سمعها لاغو من جده الذي سمعها بدوره من جده، الذي كان ناضجاً كفاية حين حدث كل شيء أمام ناظريه:

في ذلك الزمن الذي عاش فيه البشر والحيوانات في ودّ ووئام مع بعضهم، حين لم يكن القيّوط، ذئب البراري، كائناً سيئاً إذا ما تعرّفت عليه، وحين كان أسد الجبل يدمدم بسعادة إذا مرّ بك نهاراً، عاش في الوادي الرائع صبيّ وفتاة.

كان هذا الوادي مكاناً رائعاً للعيش. فهو أشبه بسجادة خضراء هائلة تمتدّ لأميال وأميال، وحين كان يهبّ الريح يتمايل العشب الطويل كأنه أمواج البحر. وكانت الزهور من شتى الألوان تملأ الوادي الرائع، وينبت التوت كثيفاً، وتملأ الطيور الهواء الصيفيّ بأغانيها.

لكن أجمل ما في الأمر أنه لم يكن هناك من سبب للخوف.

كان يستطيع الأطفال التجوال كيفما شاؤوا - فيشاهدون الفراشات الزاهية، ويصادقون السناجب والأرانب، ويلاحقون النحل إلى حيث تخزّن العسل في الشجر.

أما الحيوانات البرية، فكانت جميعها مختلفة عما نعرفه في أيامنها هذه، حيث يحبسون الكائنات المسكينة في الأقفاص، أو ضمن حدود أرض صغيرة مسيّجة. في الوادي الرائع كانت الحيوانات تركض بكلّ حرية وسعادة، مثلما خلقت لتفعل. كان الدب كائناً طيباً كبيراً وكسولاً، يقتات على التوت والعسل البري في الصيف، ويزحف إلى كهف بين الصخور في الشتاء وينام حتى الربيع. ولم يكن الظبي لطيفاً فحسب، بل أليفاً، وغالباً ما كان يأتي لكي يرعى العشب الرقيق الذي ينمو حيث يلعب الطفلان.

أحب الولدان جميع الحيوانات، وأحبتهما الحيوانات أيضاً؛ لكن ربما كان المفضّل عندهما الأرنب البري والوعل. كانت قائمتا الأرنب طويلتين وكذلك أذناه، تقريباً بطول أذني البغل، ولم يكن بين الحيوانات التي من حجمه من يستطيع مجاراته في القفز عالياً. غير أنه بالتأكيد لم يكن يستطيع أن يبلغ علوّ قفزات الوعل، وهو اسم ذلك الظبي الصغير اللطيف، ذو القرنين الصغيرين والقوائم الصغيرة، الذي يستطيع مسابقة الريح.

شيء آخر جعل الوادي مكاناً رائعاً على هذا النحو هو النهر الذي يجري فيه، والذي يجعله مقصداً لجميع الحيوانات التي تقطع مسافات طويلة لكي تشرب من مياهه الصافية الباردة وتستحم بها في أيام الصيف الحارة. وكان ثمة بركة ضحلة كأنها صنعت خصيصاً للطفلين. وقد تولّى صديقهما القندس، بذيله المسطح الشبيه بالمجذاف وقدميه المتشابكتين كقدمي البطة، تعليمهما السباحة ما إن تعلما المشي، وكان اللعب في البركة في دفء العصاري أعظم متعهما.

ذات يوم في منتصف الصيف كانت المياه منعشة جداً، فبقيا في البركة مدّة أطول من المعتاد، حتى إنهما حين خرجا منها أخيراً كانا منهكين من التعب. وبما أنهما شعرا ببعض البرد فقد بحثا حولهما عن مكان يجفان فيه ويتدفآن.

قال الصبي: «لنتسلق تلك الصخرة الكبيرة المسطحة المغطّاة بالطحالب. فنحن لم نفعل هذا من قبل. ربما نجده أمراً مسلياً».

ثم ارتقى الصبي الصخرة التي لم تكن تزيد عن القدم الواحدة ارتفاعاً، وقام برفع أخته من بعده. ثم استلقيا أرضاً لكي يستريحا، لكن سرعان ما غلبهما النعاس فناما من دون قصد.

لا أحد يعرف كيف حدث أنه في تلك اللحظة بالذات بدأت الصخرة ترتفع وتكبر. لكن هذا حدث حقاً، لأنها ها هي اليوم، عالية وجرداء، أعلى من كل صخور الوادي الأخرى. بينما كان الطفلان غافيين ارتفعت الصخرة وارتفعت، إنشاً بعد إنش، وقدماً بعد قدم، حتى باتت في اليوم التالي أعلى من أعلى الأشجار.

في الأثناء بدأ والدا الطفلين بالبحث عنهما في كلّ مكان، لكن دونما جدوى. فلم يكن من أثر لهما. ولا رآهما أحد يتسلقان الصخرة. وقد انشغل الجميع بأمر اختفاء الولدين فلم يلاحظوا التحوّلات التي طرأت عليهما. مضى الأبوان بعيداً قائلين: «أنت أيها الوعل أرأيت طفلينا؟ وأنت أيها الأرنب، لابدّ من أنك لمحتهما». لكنّ أياً منهما لم يرهما.

أخيراً التقيا القيّوط، الأكثر فطنة بين الحيوانات، وهو يسير مزهواً في الغابة، فطرحا عليه السؤال نفسه.

فأجاب: «لا، لم أرهما منذ مدّة. لكنني أُعطيت أنفي هذا لأشمّ به. وأعطيت العقل لأفكّر به. لذا أستطيع مساعدتكما».

سار معهما على ضفة النهر، وسرعان ما بلغوا البركة التي كان الطفلان يسبحان فيها. تشمّم القيّوط الأرض طويلاً. وجعل يركض في أرجاء المكان داساً أنفه في الأرض؛ ثم ركض إلى الصخرة، وتسلقها بمخلبيه إلى أعلى ما يمكنه الوصول، وتشمّم ثانية.

وراح ينخر: «همممم! لا يمكنني الطيران كالنسر، ولا السباحة كالقندس. لكنني كذلك لست بحماقة الدب، ولا جهالة الأرنب. ولم يضّللني أنفي بعد، لابدّ من أن ولديكما في أعلى هذه الصخرة».

فسأل الأبوان المشدوهان: «لكن كيف أمكنهما الصعود إليها؟». ذلك أن الصخرة كانت مرتفعة إلى حدّ أن قمتها قد غطّيت بالغيوم.

فقال القيّوط بجدية، غير مستعد للاعتراف بأن هنالك ما لا يعرفه: «ليس هذا هو السؤال، ليس هذا السؤال إطلاقاً. أي شخص يمكنه أن يطرح هذا السؤال. لكن السؤال الوحيد الذي يستحق أن يُطرح هو: من ذا الذي سينزلهما مجدداً؟».

نودي على جميع الحيوانات للتباحث في الأمر والتوصل إلى حلّ. ثم قال الدّب: «فقط لو كان في وسعي أن أحيط الصخرة بيديّ وأتسلقها. لكنها أكبر من ذلك». وقال الثعلب: «فقط لو كانت حفرة عميقة لا هضبة عالية، لكنت قادراً على تقديم العون». وقال القندس: «لو كانت ماء لسبحت فيها بأقصى سرعتي».

وبما أن هذا النقاش لم يؤدّ إلى نتيجة، خلصوا أخيراً إلى أنه ليس من طريقة سوى أن يقوم كلّ واحد منهم بالقفز لكي يختاروا الأجدر بينهم للقيام بهذه المهمة. كان الجميع متحمّساً للمحاولة، إنما سُمح للأصغر بين الحيوانات القيام بالمحاولة الأولى. فقفز الفأر قفزة صغيرة مضحكة، نحو نصف ارتفاع أيديكم. وقفز السنجاب أعلى بقليل، وقام الأرنب بأعلى قفزة في حياته، وكاد يكسر ظهره سدى. كذلك فعل الوعل لكنه لم يفلح إلا بأن يحطّ ثانية على قوائمه من دون إلحاق الأذية بنفسه. أخيراً قفز الأسد الجبلي عالياً، ولكي يحقق بداية قوية، ركض نحو الصخرة بقفزات كبيرة، ثم مدّ نفسه، وأخيراً وقع أرضاً على ظهره. كانت قفزته الأعلى بين الحيوانات غير أنها لم تكن كافية.

لم يدر أحد ماذا يفعلون تالياً. بدا أن الولدين تُركا غافيين إلى الأبد، عالياً هناك بين الغيوم.

فجأة سمعوا صوتاً صغيراً يقول: «ربما إذا سمحتم لي بالمحاولة فقد أتمكن من تسلّق الصخرة».

نظروا حولهم جميعاً متفاجئين، متسائلين من ذا الذي تكلّم؛ وفي البداية لم يروا أحداً، وظنّوا أن القيّوط يتحايل عليهم، سوى أن القيّوط كان متفاجئاً مثلهم جميعاً.

قال الصوت الصغير ثانية: «انتظروا لحظة. إنني آت بأقصى سرعة». ثم خرجت دودة من العشب، وهي كائن صغير مضحك[1]، شقت طريقها عبر تحديب ظهرها والسير ببطء شديد.

قال أسد الجبل من أعماق حلقه: «هوو، هوو». وكان دائماً يتكلم بهذه الطريقة حين يشعر بأن كرامته أهينت. «هوو، هوو! أسمعتم قبلاً بمثل هذه الصفاقة؟ إذا كنتُ أنا الأسد قد أخفقت، فكيف لكائن صغير بائس مثلك أن يأمل بالنجاح؛ فقط قولي لي هذا!».

قال الأرنب: «هذا سخف تام. هذه هي الحقيقة. أنا لم أسمع بمثل هذا الخداع».

---

(1) في حضارة قبائل الهنود الحمر فإن كلّ كائن مهما كبر حجمه أو صغر يتمتع بقوة ما، قد تكون صغيرة وقد تكون عظيمة، بصرف النظر عن حجم الكائن نفسه (م)..

بيد أنه بعد الكثير من النقاش اتفقوا على أنه لا ضير في أن تحاول الدودة. فبدأت الأخيرة تتسلّق الصخرة ببطء. وخلال بضع دقائق بلغت مسافة أعلى من تلك التي قفزها الأرنب. وسرعان ما تجاوزت مسافة قفزة الأسد أيضاً، وقبل أن يمرّ وقت طويل كانت الدودة قد اختفت عن الأنظار.

استلزمها تسلّق الصخرة شهراً كاملاً، من دون أن تتوقف ليلاً أو نهاراً، حتى بلغت أعلى الصخرة المسحورة. وحين وصلت إلى هناك أيقظت الصبيّ والفتاة، اللذين فوجئا أشدّ المفاجأة حين رأيا أين هما، وقادتهما الدودة بأمان إلى الأسفل عبر ممرّ في الصخرة لم يكن يدري به أحد. هكذا، بالصبر والمثابرة تمكّنت الدودة، هذا الكائن الصغير الضعيف من فعل ما أخفق الدبّ رغم كلّ ضخامته، والأسد رغم عظيم قوّته، في فعله. حدث هذا قبل زمن طويل؛ أما في زماننا هذا، فلم يعد هنالك دببة أو أسود في الوادي، ولا أحد يتذكّرها. لكن الجميع يتذكّر الدودة، لأن الصخرة الكبيرة ما زالت موجودة، وقد أسماها الهنود على اسم الدودة «تو- توك – آ – نو-لا»، وهو بالتأكيد اسم كبير على كائن صغير مثلها، إلا أنه ليس بكبير قطّ على العمل العظيم والشجاع الذي قامت به.

ابن نجم المساء

على ضفاف البحيرة الكبرى، «غيتشي غومي»، كان يعيش صياد له عشر بنات رائعات الجمال. كانت شعورهن سوداء لمّاعة كأجنحة طائر السّوادية، وحين يمشين أو يركضن فبروعة وخفّة الظبي في الغابة.

وهكذا تقدّم لخطبتهن خطّاب كثر، شبان شجعان وسيمون، قاماتهم مستقيمة كالسهام، رشيقون يمكنهم الركض من الشمس إلى الشمس من دون أن يعتريهم التعب. كانوا أبناء البراري، خيّالة يستطيعون العدو على ظهور الخيل بسرعات تقطع الأنفاس دونما سرج أو زمام. ويمكنهم أسر حصان بعقدة الحبل وترويضه بطريقة سحرية عبر النفخ في منخريه، ثم اعتلاءه والسير به كأنه لطالما كان مروّضاً. كان ثمة بينهم من قطعوا مسافات بعيدة على متن قواربهم السريعة التي شقّت بسرعة وقوة مياه «غيتشي غومي».

جميعهم جاءوا بالهدايا التي أملوا بأن تنال رضا الأب. أرياش

من أجنحة النسر الذي يحلّق عالياً نحو الشمس؛ وفراء من الثعلب والقندس والبيسون؛ وخرز من شتى الألوان والوامبام[1]، وهي الأصداف التي يستعملها الهنود بدلاً من المال؛ أطواف صنّارات الصيد مصنوعة من أشواك القنفذ ومخالب الدب الأمريكي. جلد الظبي الناعم إلى حدّ أنه يتجعد بمجرد لمسه - إضافة إلى هدايا أخرى كثيرة.

واحدة بعد الأخرى ألقت تسع من الفتيات عهود الزواج. ونصبت خيام جديدة، إلى درجة أنه بدلاً من مسكن عائلة واحدة على ضفاف البحيرة أصبح هنالك ما يكفي من الخيام لتشكّل قرية صغيرة. ذلك أن الأرض كانت مليئة بالثروات وفيها ما يكفي من الطرائد والأسماك.

لم يتبق سوى الابنة الصغرى، «أويني»، الأجمل بينهن جميعاً. وعلى عكس أخواتها المغرورات الثرثارات، كانت الأطيب قلباً والأكثر خجلاً وتواضعاً ولم تكن تحبّ الكلام كثيراً. كانت تحب التنزّه وحيدة في الغابة دونما رفيق سوى الطيور والسناجب وأفكارها الخاصة. أما ما هي هذه الأفكار،

(1) Wampum: هي الأصداف، وتشتهر في ثقافات مختلف القبائل الهندية الحمراء في تطريز الأحزمة، التي كانت تستعمل أحياناً في الاتفاقات الدبلوماسية، أو في المناسبات المهمة (م).

فلا يسعنا سوى أن نخمّن تخميناً؛ فمن عينيها الحالمتين وتعابير وجهها الرقيقة، يمكن أن يفترض المرء أنه لم يعبر خيالها شيء أناني أو شرير أو بغيض. بيد أن «أويني»، على الرغم من تواضعها الجمّ هذا، تتمتّع بشخصية مميّزة.

وقد اكتشف أكثر من متقدّم لخطبتها هذا الأمر. أكثر من شاب مزهوّ بنفسه، واثق من أنه سيفوز بها زوجة له، عاد مكسور الخاطر حين بدأت «أويني» بالضحك عليه.

الحقيقة هي أن أويني كانت صعبة الإرضاء. تقدّم منها الخاطب بعد الآخر، شبان وسيمون طوال، الأشدّ بسالة ووسامة في كل الأرض المحيطة، لكن هذه الفتاة ذات عيني الظبي رفضتهم جميعاً، متذرّعة بأن هذا أطول من اللازم، وذاك أقصر أو أسمن أوأنحف من اللازم. على الأقلّ كان هذا ما تبرّر به رفضها لهم. وقد جعل موقفها هذا أخواتها ينقمن عليها. فقد بدت كأنها تشكّك بأذواقهن هنّ؛ لأن «أويني» تستطيع، بمجرد أن تشير إلى ذلك، أن تحصل على زوج يفوق جميع أزواجهن جاذبية، غير أن أحداً من الخطاب لم ينل إعجابها. لم يستطعن فهمها، فانتهى بهن الأمر إلى اعتبارها فتاة سخيفة تفتقر إلى الحسّ السليم.

ولم يكن والدها الذي يحبّها ويعتبرها الأعزّ إلى قلبه، بأقل اندهاشاً منهن. فقال لها ذات يوم: «أخبريني يا ابنتي، أترغبين في ألا تتزوجي قطّ؟ فقد طلب أوسم الرجال يدك للزواج لكنك رفضتهم جميعاً، غالباً بأعذار واهية. فما السبب؟».

شخصت «أويني» نحوه بعينيها الداكنتين الواسعتين، ثم قالت:

«يا أبتاه، أنا لا أقصد ذلك. لكن كأنني أملك القوة على النفاذ إلى قلوب الرجال. إن قلب الرجل، لا وجهه هو ما يهمّ حقاً. ولم أجد رجلاً رائعاً بعد بهذا المعنى».

بعدها بفترة قصيرة حدث أمر غريب. فقد جاء إلى القرية الصغيرة هندي اسمه «أوسيو»، وكان يكبر أويني بسنوات كثيرة. كان فقير الحال، دميم الوجه. لكن «أويني» رضيت به زوجاً لها.

وكم لاكتها ألسن أخواتها المغرورات! أفقدت هذه الصغيرة المدلّلة عقلها؟ آه، حسناً، لطالما كنّ يعرفن أنها ستصل إلى مثل هذه النهاية السيئة؛ لكنّ الأمر كان صعباً على العائلة.

بالطبع لم يرين في «أوسيو» ما رأته «أويني» فوراً، وهو أنه ذو طبيعة نبيلة، وأن قلبه من ذهب؛ أنه تحت دمامته الظاهرة يتوهّج جمال روح نبيلة، ويضطرم شغف شاعر. ولهذا أغرمت به «أويني»، وإذ أدركت أيضاً مدى حاجته إليها، فقد ازداد حبها له.

الآن، على الرغم من أن «أويني» لم يخامرها شكّ بمثل هذا الأمر، فقد كان «أوسيو» شاباً وسيماً بالفعل، ولكن ألقيت عليه تعويذة شريرة جعلته على هذه الحال. كان في الحقيقة ابن ملك نجم المساء، ذلك النجم الذي يشعّ متألقاً في سماء الغرب، فوق حافة الأرض تماماً، عند غروب الشمس. غالباً ما يرى في الأماسي الصافية يشعّ كالجوهرة في الغروب الأرجواني. فيبدو شديد القرب والإلفة، حتى إن الأطفال يرفعون أيديهم نحوه متوهّمين أنهم يمكنهم ملامسته والإمساك به قبل أن تبتلعه ظلمة الليل.

أما الكبار فكانوا يقولون: «إنه بالتأكيد خرزة في عباءة الروح الكبرى[1] وهو يجوب في المساء حديقة السماوات».

(1) الروح الكبرى Great Spirit: أو «سيد الحياة» أو «لغز كلّ شيء» أو بالهندية «غيتشي مانيتو»، أي «سيد المانيتو» أو «المانيتو الكبرى»، فغيتشي تعني الأكبر أما كلمة مانيتو فتعني «القوة» أو «السحر» أو «الروح» والمعنى الكامل للكلمة يتضمن هذه المعاني الثلاثة، بمعنى أن من يعتبر «مانيتو»، وهو شخص من البشر، هو من يملك مثل هذه القوة الروحية والسحرية، وهي بالدرجة الأولى قوة على الشفاء الجسدي والروحي في آن، ذلك أنه في حضارة الهنود الحمر ليس من حدود فاصلة بين ما هو روحي وجسدي، وبين ما هو سماوي وأرضي، ولذلك نجد العالمين يتداخلان بسهولة في أغلب الاحيان. (م).

ما كانوا يعرفون أن الفقير المعدم «أوسيو» قد هبط من ذلك النجم. ولذلك حين مدّ هو الآخر ذراعيه نحوه، وخاطبه بكلمات ما استطاعوا فهمها، سخروا جميعاً منه.

وذات يوم أقيمت مأدبة كبيرة في قرية مجاورة ودعي إليها جميع شقيقات أويني وأزواجهن. مضوا سيراً على الأقدام سعداء مزهوين يثرثرون كالغربان. لكن «أويني» مشت خلفهم بصمت، ومعها مشى «أوسيو».

مالت الشمس إلى الغروب؛ وفي الشفق الأرجواني، فوق حافة الأرض التمع نجم المساء. توقف «أوسيو» عن السير ومدّ يديه نحوه كأنه يلتمس الرحمة؛ لكن حين رآه الآخرون على هذه الحال سخروا منه، وأبدوا تعليقات غير لطيفة.

فقالت إحدى الشقيقات: «يحسن به، بدلاً من أن ينظر عالياً إلى السماء، أن ينظر إلى الأرض وإلا وقع وكسرت رقبته». ثم نادته قائلة «انتبه! أمامك جذع ضخم. أوتحسب أنك تستطيع القفز فوقه؟».

لم يجب «أوسيو»؛ بيد أنه حين وصل إلى الجذع توقف ثانية. كان جذع شجرة بلوط عملاقة قد أوقعتها الرياح. وكانت

في مكانها ذاك منذ سنوات طويلة، ولا تزال على حالها منذ وقوعها. لكن كان ثمة أمر لم تلاحظه الشقيقات. لم يكن الجذع صلباً، بل مجوّفاً، وكان كبيراً إلى حدّ يستطيع رجل أن يعبره من طرف إلى الآخر من دون أن يضطر إلى الانحناء.

لكن «أوسيو» لم يتوقف لأنه عجز عن القفز فوقه. بل كان ثمة شيء سرّي وغامض في شكل هذا الجذع المجوّف؛ فجعل يحملق به طويلاً كأنه رآه ذات مرة في المنام، وكان يبحث عنه منذ ذلك الوقت.

لمست «أويني» ذراعه وسألته: «ماذا هنالك يا أوسيو؟ أترى شيئاً لا أراه؟».

لكن «أوسيو» صرخ فحسب صرخة تردّد صداها في الغابة وقفز إلى داخل الجذع. ثم بينما وقفت «أويني» تنتظر وقد اعتراها بعض القلق، ظهر لها من الطرف الآخر رجل آخر. أيمكن أن يكون هذا أوسيو؟ بلى، إنه أوسيو، إلا أنه صار شخصاً آخر! لم يعد محنيّ القامة دميم الوجه، ولا واهناً مريضاً، بل بات صلباً قوياً باسق القامة. كان قد انفكّ السحر عنه. لكن ليس بصورة كلية. فحين دنا «أوسيو» من محبوبته رأى أن تغيّراً كبيراً قد طرأ على شكلها. فقد تحوّل شعرها الأسود اللمّاع إلى اللون الأبيض،

وعلت وجهها تجاعيد عميقة، وصارت تمشي بخطوات واهنة متكئة على عكّاز. لقد استعاد شبابه أما هي فقد صارت عجوزاً.

فأخذ يبكي: «آه يا حبيبتي، لقد سخر مني نجم المساء بأن أحلّ هذه المصيبة عليك. يا حبّذا لو بقيت كما كنت، لاحتملت بسرور إهانات أهلك وسخريتهم، على أن أراك تعانين».

فأجابته زوجته: «ما دمت تحبني، فأنا راضية تماماً. لو كان لي أن أختار وكان واحد منا فقط شاباً ووسيماً لاخترت أن تكون أنت».

فأخذها بين ذراعيه وراح يربتها، متعهداً بأن يحبها أكثر من قبل لطيبة قلبها. ومشيا معاً يداً بيد مثلما يفعل العشاق.

بالكاد صدّقت الشقيقات المغرورات ما تراه عيونهن. فرحن يحملقن بحسد بـ «أوسيو» الذي أصبح الآن أوسم من جميع أزواجهن، ومتفوقاً عليهم في كلّ شيء. في عينيه يلمع ضوء نجم المساء الرائع، وحين يتكلم يلتفت الجميع إليه ويصغون بإعجاب. لكن الشقيقات قاسيات القلوب لم تأخذهن الشفقة بأختهن. فقد أشبع غرورهن أن يرين أن جمالهن ما عاد ينطفئ أمام جمالها، وأن الناس لن يتغنّوا بعد الآن بجمالها أمام أسماعهن الغيورة.

مُدّت المائدة، وكان الجميع فرحاً مبتهجاً إلا «أوسيو» الذي ظلّ ساهماً، لا يأكل ولا يشرب. من وقت لآخر كان يضغط على يد «أويني» ويهمس في أذنها بكلمات رقيقة مؤاسية. لكنه معظم الوقت جلس هناك، شاخصاً من باب الخيمة نحو السماء المشعة بالنجوم.

ثم خيّم صمت على المجموعة. فمن قلب الغابة الغامضة المظلمة، انبعث صوت موسيقى، صوت منخفض وعذب يشبه شدو طائر السّمن في الغروب الصيفي. كانت موسيقى سحرية لم يسمع أحد مثيلاً لها من قبل، وبدت آتية من مسافات بعيدة، لترتفع وتسقط في المساء الصيفي الساكن. تساءل جميع الجالسين إلى المائدة عن هذا الصوت. وكان لهم الحق في ذلك! فما كان لهم مجرد موسيقى كان بالنسبة لـ «أوسيو» صوتاً مفهوماً، صوتاً آتياً من السماء، صوت نجم المساء. وهذه كانت الكلمات التي سمعها:

«لن تعاني بعد الآن يا بني، لأن السحر الشرير قد انتهى ومن الآن فصاعداً لن يتمكن ساحر من أذيتك. فلتنته معاناتك، إذ آن أوان أن تترك الأرض وتسكن هنا معي في السماء. أمامك طبق قد أضيء بنوري، فقد باركته ومنحته قدرة سحرية. كل يا أوسيو من هذا الطبق، وكلّ شيء سيكون على ما يرام».

فتذوق «أوسيو» الطعام ومهلاً! ها قد بدأت الخيمة بالارتعاش، وإذا بها ترتفع رويداً في الجوّ؛ عالياً، فوق الأشجار، عالياً نحو النجوم. وبينما ترتفع تبدّلت الأشياء التي في داخلها بطريقة عجيبة. فأصبحت غلايات الطين قدوراً من الفضة، والأطباق الخشبية أصدافاً أرجوانية، في حين تحوّل لحاء السقف والأعمدة التي تسنده مادة برّاقة تلمع في ضوء النجوم. عالياً، عالياً، ظلت الخيمة ترتفع. ثم تحوّلت الشقيقات التسع وأزواجهن إلى طيور. أصبح الرجال أبو الحناء، والسمّن، ونقّار الخشب. أما الشقيقات فتحوّلن طيوراً مختلفة زاهية الريش؛ الأربع اللواتي كن الأكثر ثرثرة، التي لم تكن ألسنتهن تكفّ عن الكلام، فقد ظهرن بشكل طيور الغراب وأبو زريق.

راح «أوسيو» ينظر إلى «أويني»، متسائلاً ما إذا كانت ستتغير هي الأخرى إلى طائر ويفقدها؟ ومجرد التفكير في الأمر جعله يحني رأسه حزناً، لكنه حين رفع رأسه رأى أنها قد استعادت جمالها، وقد تزيّت بثوب رائع لا يمكن العثور على مثل ألوانه إلا في ألوان قوس قزح.

مجدداً ارتعشت الخيمة وتأرجحت ورفعها الهواء أعلى وأعلى، إلى ما فوق الغيوم، عالياً، عالياً، حتى استقرت أخيراً

على أرض نجم المساء.

أمسك «أوسيو» و«أويني» بكل الطيور ووضعاها في قفص فضيّ كبير، حيث بدت مسرورة برفقة بعضها بعضاً. وقد حصل ذلك بمجرد مجيء والد «أوسيو»، ملك نجم المساء، لتحيتهم. كان يرتدي رداء اكتسى بطبقة من غبار النجوم، وشعره الطويل الأبيض يتدلى على كتفيه.

قال: «مرحباً، مرحباً بكما أيها الحبيبان في مملكة السماء التي لطالما انتظرتكما. لقد عشتما محناً مرّة، لكنكما تحملتماها بشجاعة، والآن ستكافآن على شجاعتكما وإخلاصكما. ستعيشان بسعادة هنا؛ لكن يجب أن تحذرا شيئاً واحداً».

وأشار الملك إلى نجم بعيد يرتعش ضوؤه وامضاً، ومن وقت لآخر، تحجبه غيمة من البخار.

«على ذلك النجم يعيش ساحر اسمه وابينو. يمتلك قوة رمي أشعته مثل السهام على أولئك الذين يرغب في أذيتهم. لطالما كان عدوّي؛ وهو من بدّل شكل أوسيو إلى رجل هرم وأنزله إلى الأرض. انتبها حتى لا يصيبكما ضوؤه. لحسن الحظ إنّ قدرته على الشرّ قد وهنت؛ فالغيمات الصديقات هبّت لعوني،

وشكّلت حجاباً من البخار لا يمكن لسهامه اختراقه».

جثا الزوجان السعيدان أمام الملك، وقبلا يديه امتناناً.

قال أوسيو وهو ينهض واقفاً ويشير إلى القفص: «لكن ماذا بشأن هذه الطيور؟ أهذا أيضاً من فعل وابينو الساحر؟».

أجاب الملك نجم المساء: «لا، هذه قوتي أنا، قوة الحب، التي جعلت خيمتكم ترتفع وتحملكم إلى هنا. وهكذا أيضاً تحولت الشقيقات الغيورات وأزواجهن إلى طيور. لأنهم كانوا يكرهونكما ويسخرون منكما وكانوا قساة وهازئين من الضعيف والمسنّ، فقد فعلت بهم هذا. وهذا ليس بالعقاب الحقيقي الذي يستحقونه. هنا في هذا القفص الفضي سيكونون سعداء بما فيه الكفاية، فخورين بريشهم الزاهي. وسيلقون أحسن العناية هنا في هذا القفص المعلّق على بوابة مملكتي».

وهكذا عاش «أوسيو» و«أويني» في مملكة نجم المساء، ومع مرور الزمن صار النجم الوامض حيث يعيش «وابينو» الساحر يزداد شحوباً حتى فقد كل قوته وقدرته على الشرّ. في الأثناء رزقا بصبي أكمل سعادتهما، صبيّ فاتن له عينا أمه السوداوان الحالمتان وبأس «أوسيو» وشجاعته.

كان مكاناً رائعاً لينشأ فيه صبي صغير، بجوار النجوم والقمر، وعلى مقربة من السماء حتى ليشعر أنها ستارة لفراشه، لأن مجد السماء كله كان ممدوداً أمامه. لكنه كان أحياناً يشعر بالوحشة ويتساءل كيف هو شكل الأرض، تلك الأرض التي جاء منها أمه وأبوه. فهو يراها بعيدة في الأسفل، بعيدة جداً حتى لا تبدو لناظريه أكبر من برتقالة، وأحياناً يمدّ يديه نحوها، مثلما يمدّ أطفال الأرض أيديهم نحو القمر.

صنع له أبوه قوساً وسهاماً صغيرة، وأفرحه ذلك كثيراً. لكنه ظلّ وحيداً، وتساءل ماذا يفعل الأطفال من بنات وصبية في الأرض، وما إذا كانوا لطفاء لكي يلعبوا معه. لابدّ من أن الأرض مكان جميل، فكّر. وهناك كثر يعيشون فيها. وقد روت له أمه حكايات غريبة عن تلك الأرض البعيدة، ببحيراتها وأنهارها الرائعة وغاباتها العظيمة الخضراء، حيث يعيش الظبي والسنجاب، وحيث تعجّ البراري الصفراء الشاسعة بالثيران البرية.

هذه الطيور أيضاً، في القفص الفضي العظيم، جاءت من الأرض، مثلما قيل له؛ وهناك الآلاف والآلاف مثلها، وحتى طيور أجمل منها. هناك البجعات برقابها الطويلة الملوية، التي

تسبح في الماء، وطائر السّبد الذي يصيح ليلاً في الغابة وأبو الحناء ذو الصدر الأحمر، والحمامة والسنونو. لابدّ من أنها طيور رائعة الجمال!

كان أحياناً يجلس على مقربة من القفص محاولاً فهم لغة الكائنات ذات الريش في داخله. وذات يوم خطرت له فكرة غريبة؛ ماذا لو فتح باب القفص وتركها تخرج؟ ستطير عندئذ عائدة إلى الأرض، وربما تأخذه معها. وحين يفتقده والداه فسيتبعاه بكل تأكيد إلى الأرض وعندئذ...

لم يستطع أن يتخيّل فعلاً نهاية الأمر. لكنه وجد نفسه يفتح باب القفص ويخرج الطيور التي راحت تطير في الأرجاء، وعندئذ بدأ يشعر بشيء من الندم، وببعض الخوف أيضاً. إذا عادت الطيور إلى الأرض وتركته هناك، فما الذي سيقوله جده؟

فراح ينادي عليها: «عودي، عودي».

لكن الطيور ظلّت تحلق في دوائر ولم تعره اهتماماً. في أيّ لحظة ستبدأ بالرحيل إلى الأرض.

صرخ وهو يضرب بقدميه ويلوح بقوسه الصغير: «إنني آمرك بالعودة، عودي وإلا رميتك بسهامي».

ثم وحين لم تطعه وضع سهماً في قوسه وأطلقه. صوّب جيداً فاخترق سهم ريش أحد الطيور وتطاير الريش أرضاً. أما الطائر نفسه، الذي أصيب بحال من الذهول فقد سقط أرضاً لكنه لم يتأذّ كثيراً، ولطّخت بقعة صغيرة من الدم الأرض تحته. لكنه لم يعد طائراً، بل امرأة جميلة.

لا أحد ممن يعيش في النجوم يسمح له بإهراق الدماء - سواء أكان رجلاً أم حيواناً أم طائراً. فحين سقطت قطرات الدم على نجم المساء تغيّر كل شيء. وجد الصبي نفسه فجأة يغرق إلى الأسفل، تحمله أيد غير مرئية، ويقترب شيئاً فشيئاً من الأرض. سرعان ما رأى هضابها الخضراء والبجعات التي تمشي على الماء - حتى هبط أخيراً على جزيرة في بحيرة فسيحة واسعة. ممدداً هناك، ناظراً إلى السماء رأى الخيمة تهبط أيضاً. انجرفت إلى الأسفل بنعومة، حتى هبطت هي الأخرى على الجزيرة وكان في داخلها أبوه وأمه وقد عادا ليعيشا مرة أخرى على الأرض، وبين رجالها ونسائها لكي يعلموهم سبل العيش. ذلك أنهما تعلما الكثير من الأمور

خلال حياتهما على نجم المساء، وسيكون أطفال الأرض أفضل حالاً بهذه المعرفة.

بينما وقفوا هناك، يداً بيد، جاءت الطيور ترفرف أيضاً في الهواء. وحين لامس كل منها الأرض لم يعد طائراً بل بشرياً، ولم يعد كالسابق بل صار قزماً، أو «بيغميس» أو «باك وادجيس»، مثلما يسميهم الهنود. أصبحوا «الأقزام السعداء»، الذين لا يراهم إلا قلة. يقال إن الصيادين يلمحونهم أحياناً وهم يرقصون على ضوء نجم المساء، في ليالي الصيف، على ضفاف «البحيرة الكبرى».

الفتى الذي نصب شركاً للشمس

اكتست الأرض بطبقة كثيفة من الثلج حتى جعلت تلتمع في نور قمر الشتاء. سكنت الريح. وحلّ على الأرض البرد والسكون. ولم يكن من صوت ينبعث من الغابة أو يكسر سكون الليل، سوى صوت تكسّر الجليد الذي يغطّي البحيرة الزرقاء الكبرى، «غيتشي غومي».

لكن في داخل خيمة الشيخ لاغو كان الجوّ دافئاً وبهيجاً. فالـ «تيبة»[1]، على نحو ما يسمّي الهنود الخيمة، محميّة بطبقة كثيفة من جلد الثور البري؛ أما المعطف الشتوي لـ «موك - وا»، وهو الدّب، فقد أصبح الآن حصيرة لزائري لاغو الصغيرَين، «نجمة الصبح» وشقيقها الصغير «جناح النسر»، اللذان أقعيا على الفروة الدافئة منتظرَين أن يبدأ الشيخ بالكلام.

فجأة خرج فأر صغير أبيض القوائم يزحف من جحره في الزاوية، وحين اقترب من الطفلين وقف على قائمتيه الخلفيتين

(1) التيبة Teepee: خيمة مخروطة الشكل تصنع من جلود الحيوانات (م).

مثل كلب ينتظر البسكويت. رفع «جناح النسر» يده مهدداً، لكنّ «نجمة الصبح» أمسكت بها، قائلة:

«لا، لا! لا يجب أن تؤذيه. أترى كم هو ودود وليس خائفاً البتة. هناك طرائد كافية في الغابة لقوس ونشّاب فتى شجاع مثلك. فلماذا تهدر طاقتك على فأر صغير ضعيف؟».

«جناح النسر» الذي يفرحه أيّ كلام يشبه الإطراء حول قوته، ترك يده تسقط، قائلاً:

«إنك تنطقين صدقاً يا نجمة الصبح، فمهارتي كصيّاد تقاس مع آهميك، القندس، وواو- بي -سي، البجعة البرية».

عند هذا الكلام التفت لاغو وكسر صمته.

قال بغموض: «كان ثمة زمن، لم يكن فيه ألف صبيّ يمتلك مثل قوّة جناح النسر بقادر على مضاهاة قوة فأر كهذا، على حاله التي كان عليها».

قال جناح النسر، وهو يرمق أخته باستياء: «متى كان ذلك؟».

أجاب لاغو: «في زمن الدورموس[1] العظيم. في قديم الزمان حين كانت الحيوانات تفوق البشر عدداً، وكان أكبرها

(1) الدورموس Dormouse: حيوان قديم من القوارض يشبه السنجاب ويدعى الزّغبة (م).

يدعى الدوروموس. ثم حصل أمر غريب، شيء لم يتكرّر منذ ذلك الوقت. أتريدانني أن أخبركما عنه؟».

رجته «نجمة الصبح»: «أرجوك أخبرنا».

«القصة التي سأرويها لكما ليست عن الدوروموس بقدر ما هي عن صبيّ صغير وأخته. لكن لولا الدوروموس لما كنت هنا لأخبركما بها، ولما كنتما هنا لتسمعاها.

«في البداية يجب أن تفهما أن العالم في تلك الأيام كان مختلفاً عما هو عليه اليوم. آه، بلى، كان مكاناً مختلفاً. لم يكن الناس يأكلون لحوم الحيوانات. بل يقتاتون من ثمر العليق والبقول والخضروات. لم يكن «الروح الكبرى» الذي جعل كلّ شيء في الأرض وفي السماء وفي الماء، قد أعطى الإنسان الـ «مون – دا – مين» بعد، أي الذرة الهندية. ولم تكن هناك نار ليتدفأوا أو ليطهوا بها. كان ثمة في العالم بأسره شمس واحدة صغيرة، تحرسها ساحرتان عجوزان ما كانتا تسمحان لأحد بالاقتراب منها؛ وحتى مجيء القيّوط، ذئب البراري، وسرقته بعض النار، فالطعام الذي كان يفلح البشر في الحصول عليه كان يؤكل نيئاً».

قاطعته «نجمة الصبح»: «لابـدّ من أنهم كانوا يشعرون بالجوع».

قال «لاغو» مؤيداً كلامها: «آه بلى، كانوا يشعرون بالجوع الشديد، لكن هذا لم يكن كل شيء. كان هناك الكثير من الحيوانات والقليل من البشر، إلى درجة أن الحيوانات حكمت الأرض على هواها. وكان أكبرها بوش - كوا - دوش، أي الماستادون[1]. كان أطول من أعلى الأشجار، وكان لديه شهية عظيمة. لكنه لم يبق طويلاً على الأرض، وإلا لما بقي طعام يكفي سائر الحيوانات».

عندئذ قاطعه «جناح النسر»: «حسبتك قلتَ إن الدورموس كان الأكبر».

جعل «لاغو» يرمقه باهتمام.

«في الوقت الذي أتكلّم عنه كان بوش - كوا - دوش قد رحل. ولم يرحل سريعاً كذلك، إذ في ذلك الوقت لم يكن قد بقي من البشر سوى فتاة صغيرة وشقيقها الصغير».

سألته «نجمة الصبح»: «مثل جناح النسر ومثلي؟».

---

(1) حيوان من فصيلة الماموث (م).

أجاب «لاغو» بأناة: «كانت الفتاة شديدة الشبه بك. أما الصبي فكان قزماً، لم يتجاوز نموّه الثلاث أقدام. بما أنها أقوى وأطول من شقيقها فقد كانت الفتاة تأتي بالطعام لكليهما، وكانت تعتني بكلّ أمور شقيقها. أحياناً كانت تصحبه معها حين تذهب بحثاً عن ثمر العليق والبقول. كانت تقول لنفسها إنه صبي صغير جداً، فإذا تركته وحده قد يأتي طائر كبير ويحمله معه إلى عشه.

لم تكن تعرف أيّ صبي غريب هو، وكم من الأخطاء يمكن أن يرتكب حين يزمع ذلك. ذات يوم قالت له: اسمع يا أخي الصغير! لقد صنعت لك قوساً ونشاباً. آن أوان أن تتعلم الاهتمام بنفسك، تحسباً لافتراقي عنك، فعليك أن تتمرن على رمي السهام.

كان الشتاء يقترب ولم يكن يرتدي الصبي ما يقيه البرد سوى رداء صغير حاكته له أخته من الأعشاب البرية. كيف يمكنه أن يحصل على معطف دافئ؟ بينما يسأل نفسه هذا السؤال هبط سرب من الطيور على مقربة منه، وبدأ ينقر الجذوع المنخفضة، لكي يحصل على الديدان. قال: «ها! إن ريشها يمكن أن يصنع لي معطفاً جيداً». ورمى سهماً من قوسه لكنه لم يكن قد تعلّم

التصويب بعد؛ فمضى السهم أبعد من الهدف. فأطلق واحداً آخر وثالثاً؛ ثم فزعت الطيور وفرّت.

صار كل يوم من جديد، مصوّباً على شجرة حين لم يكن ثمة ما هو أفضل من ذلك. وحين أسقط عشرة طيور اكتفى. «أترين يا أختاه، لن أشعر بالبرد بعد الآن، يمكنك الآن أن تصنعي لي معطفاً من جلود هذه الحيوانات الصغيرة».

فحاكت شقيقته الجلود معاً، وصنعت له معطفاً، أول معطف شتويّ بارد يحصل عليه. كان منظره جميلاً يبهج النظر أيضاً. وكم كان فخوراً به! راح يمشي مزهواً كالديك بقوسه ونشابه. سأل شقيقته: «أصحيح أننا الوحيدان اللذان بقيا على الأرض؟ ربما إذا بحثت قد أجد أحدهم. لن تضيرنا المحاولة».

خشيت شقيقته أن يعرّض نفسه للأذية، لكنه عزم أمره على رؤية العالم بنفسه، وانطلق في رحلته. لكنه كان قصير الساقين، ولم يعتد السير مسافات طويلة، وسرعان ما ألمّ به التعب. حين وصل إلى مكان أجرد، أسفل هضبة أذابت الشمس الثلج عنها، اضطجع أرضاً، وسرعان ما غطّ في النوم.

بينما هو نائم لعبت عليه الشمس حيلة. كان يوماً شتوياً معتدلاً. كان المعطف الذي يرتديه ما زال جديداً ورقيقاً وتحت وهج الشمس الكامل بدأ ينكمش. «يا ويلي، ماذا حدث»، راح يتمتم في نومه وهو يشعر بالمعطف يزداد ضيقاً عليه. ثم استفاق ومدّ ذراعيه، ورأى ما حدث.

كانت الشمس بدأت بالغروب. وقف الصبي وواجهها، ولوّح بقبضته الصغيرة. صرخ بها: «أرأيت ماذا فعلت؟ لقد أفسدت معطفي. لا يهم! تحسبين أنني لن أصل إليك في الأعالي هناك؛ لكنني سأنتقم منك، فقط انتظري وسترين!».

سألت «نجمة الصبح»: «لكن كيف يمكنه بلوغ الشمس؟»، وقد صارت عيناها مستديرتين أكثر فأكثر.

قال «لاغو»: «هذا ما سألته إياه الأخت حين أخبرها بما جرى. وماذا فعل برأيكما؟ أولاً لم يفعل شيئاً سوى أنه اضطجع على الأرض، حيث ظل كذلك عشرة أيام دون طعام أو حراك. ثم انقلب إلى الجانب الآخر وظلّ كذلك عشرة أيام أخرى. وأخيراً نهض على قدميه. وقال: لقد عقدت العزم يا أختاه، لديّ خطة لنصب شرك للشمس. جدي لي حبلاً ما أستطيع أن أصنع منه شركاً».

أحضرت شقيقته بعض العشب القاسي، وجدلت منه حبلاً. فقال لها: «هذا لن يفي بالغرض. يجب أن تجدي شيئاً أمتن». لم يعد يتكلم كفتى صغير، بل مثل شخص ذي هيبة. ثم فكّرت شقيقته بشعرها. فقصّت ما يكفي منه لصنع حبل، وحين أنهته كان شقيقها مسروراً به، وقال إنه سيفي بالغرض. أخذ الحبل منها، ووضعه بين أسنانه، وإذا به يتحوّل إلى نوع من المعدن، ويتخذ مزيداً من القوة والطول حتى بات يمكنه أن يلفّه حول جسمه.

عند منتصف الليل شق طريقه إلى الهضبة وهناك ثبّت عقدة الحبل عند الموضع الذي ستشرق منه الشمس. انتظر طويلاً في الظلمة والبرد. لكن أخيراً ظهر نور خافت في السماء. وما إن أطلت الشمس برأسها حتى علقت في العقدة، ولم تستطع أن تشرق.

توقف «لاغو» عن الكلام وجلس ينظر إلى النار. يحسب المرء في هذه الأثناء أنه يرى صوراً في ألسنة اللهب وفي الجمر، وأن تلك الصور تساعده على سرد القصة. لكن «نجمة الصبح» كانت توّاقة لسماع بقية القصة. فقالت أخيراً:

«يا لاغو، أنسيت أمر الدورموس؟».

أجاب الشيخ وقد صحا من شروده: «بلى! الدورموس! لا، لم أنسه. حين لم تشرق الشمس كالعادة لم تستطع الحيوانات أن تعرف ماذا جرى. راح «أد – جي – داو – مو»، السنجاب، يهذر شاتماً على غصن شجرة سنديان. أما «كا – غا – غي»، الغراب الأسود، فصفق بجناحيه، ونعق بصوت أعلى من أي وقت، لكي يقول للآخرين إن هذه نهاية العالم. وحده «موك– وا»، الدب، لم يبال البتة. فقد زحف إلى كهفه الشتوي، حيث كلما ازدادت الظلمة بات أكثر سروراً.

كان ريح الشرق «وا – بون»، من جاءهم بخبر ما جرى. فقد أخرج من جعبته السهام الفضية التي كان يسدّدها لكي يخرج بها الظلمة من الوديان. إلا أن الشمس لم تهبّ لمساعدته كجاري عادتها، ووقعت السهام من دون أي أثر على الأرض، أخذ يصيح: «استيقظوا، استيقظوا! لقد أوقع أحدهم الشمس في شرك. من منكم أيتها الحيوانات يجرؤ على قطع الحبل؟».

لكن حتى القيّوط، ذئب البراري، الذي كان أكثر الحيوانات حكمة، لم يجد وسيلة لتحرير الشمس. كانت الحرارة التي تبثها أشعة الشمس عظيمة إلى حدّ أنه لم يدر بخلده ولو في رحلة سهم كاملة، أن الشمس يمكن أن تكون عالقة في خصلة شعر مسحورة.

فصرخ «كن - أو»، النسر المحارب، من عشّه عند السفح الصخري: «دعوا الأمر لي، أنا وحدي من يطوف السماء، وينظر إلى الشمس في وجهها من دون أن يرفّ له جفن. دعوا الأمر لي!».

هبط إلى الظلمة ثم ارتفع ثانية، مصفقاً بجناحيه، ثم قامت الحيوانات بإيقاظ الدورموس. وقد عانوا كثيراً لفعل ذلك لأنه متى نام هذا الحيوان فإنه لا يستيقظ قبل ستة شهور، وكان من سابع المستحيلات إيقاظه. اقترب القيّوط من أذنه وصاح بكل عزمه صرخة من شأنها أن تثقب أذن أيّ حيوان. لكن الدورموس تمطّى فحسب وانقلب إلى الجانب الآخر، وكاد يسحق القيّوط مثل كعكة الذرة.

قال القيّوط وقد نهض وتمطّى: «هناك شيء واحد يمكن أن يوقظه، سأركض إلى كهف آن - ني - مي - كي، الرعد. فصوته أقوى من صوتي بكثير». ثم مضى مسرعاً.

سرعان ما سمعوا صوت الرعد قادماً. بوم، بوم! وحين صاح في أذن الدورموس، نهض أكبر حيوان على الأرض ببطء على قدميه. في الظلمة بدا أكبر من حجمه المعتاد، بدا تقريباً بضخامة جبل.

ثم صاح الرعد صيحة ثانية لكي يضمن أن الدورموس استيقظ حقاً، وأنه لن يغفو ثانية.

قال القيّوط للدورموس: «الآن، أنت من عليك أن تحرّر الشمس. فإذا ما اقترب أحدنا منها فلن يبقى منه شيء سوى العظام. لكنك كبير إلى حدّ أنه إذا احترق جزء منك فسيبقى الكثير منك. وعندئذ لن تحتاج إلى الكثير من الطعام ولن تجد مشقة في الحصول على الطعام».

كان الدورموس حيواناً ساذجاً، وبدا كلام القيّوط مقنعاً له. إضافة إلى أنه، بوصفه أكبر الحيوانات، كان يُتوقَّع منه القيام بالمهام الجسيمة. فبدأ بتسلق الهضبة، إلى الموضع الذي أسر فيه الصبي الشمس، وبدأ يقرض عقدة الحبل بأنيابه. وسرعان ما بدأ يشعر بالسخونة على ظهره. ثم بدأ يحترق الجزء الأعلى من بدنه، ويتحوّل أكواماً من الرماد. حين تمكّن أخيراً من قطع الحبل بأنيابه، ومن تحرير الشمس، لم يكن قد تبقى منه سوى ما يساوي حجمه فأراً عادياً. ومنذ ذلك الوقت وهو على هذه الحال. مع ذلك، فهو كبير كثيراً بالنسبة إلى فأر، وربما كان هذا ما عناه القيّوط بكلامه. فذئب البراري حيوان ماكر، ولديه الكثير من الحيل، وليس من السهل دائماً أن نفهم مغزى كلامه.

كيف جاء الصيف

شعرت «نجمة الصبح» بالسأم الشديد من طول الشتاء، واستبدّ بها الشوق إلى الربيع. أحياناً كانت تشعر أن «كا – بيب – أون – أوكا»، ريح الشمال الهرم، لن يعود إلى بيته ثانية في أرض الجليد. بأنفاسه الباردة قد جمّد مياه البحيرة الزرقاء الكبرى، «غيتشي غومي»، وكساها بطبقة كثيفة من الثلج، حتى صار يصعب تمييزها عن اليابسة.

باستثناء الصنوبرات الخضراء الرائعة، كان العالم كله مكسواً بالبياض– عالم لّماع صامت لا تتمتم فيه المياه موسيقاها ولا تغني الطيور.

تنهّدت «نجمة الصبح» قائلة: «ألن يعود أو– بي – تشي، طائر أبو الحناء، ثانية؟ تخيّل أنه لم يعد هناك صيف في العالم، ولا شا– ون– داسي، ريح الجنوب، لكي يأتي بالبنفسج والحمام. آه يا لاغو، ألن يكون هذا رهيباً؟».

أجابها الشيخ: «تحلّي بالصبر يا نجمة الصبح، عما قريب سترين وا- وا، الإوزّة البرية، تطير عالياً في السماء، في طريقها إلى الشمال. لقد عشت أقماراً عدة. أحياناً نشعر أن الصيف قد تأخّر، لكنه دائماً يأتي. حين تسمعينه ينادي، ستجدين عندئذ طائر الحنّاء، يمضي وراءه؟».

قالت «نجمة الصبح»: «سأحاول أن أكون صبورة، بيد أن ريح الشمال شديد القوة والعنف. لا أستطيع منع نفسي من التساؤل ما إذا كان هناك زمن كانت فيه قواه هائلة إلى درجة أنه اتخذ مسكنه هنا دائماً. أرتعش خوفاً حين أفكّر في هذا!».

نهض «لاغو» من مكانه قرب النار، وأزاح جانباً ستارة جلد الثور التي تغطي الباب. وأشار إلى السماء الصافية التي تتلألأ فيها النجوم.

قال: «انظري، هناك في الشمال. أترين مجموعة النجوم تلك. أتعرفين بمَ نسمّيها؟».

فبادر «جناح النسر» إلى القول: «أنا أعرف، إنها أو - جيغ - آن - نانغ، نجوم الدّلق[1]. إذا نظرت ناحية اليمين، يمكنك أن ترى

---

(1) Fisher حيوان بحري يقتات على الحيوانات البحرية الأخرى ويعرف بفروته الثمينة (م).

أنها تشكّل جسد دلق وقد اخترق سهم ذيله. أترين يا أختاه!».

كرّرت «نجمة الصبح»: «الدّلق!» ثم قالت: «أتعني الحيوان الفروي الصغير الذي يشبه الثعلب؟ أليس مارتن (1)اسم آخر له؟».

قال «جناح النسر»: «هو بعينه».

أومأت «نجمة الصبح»: «أجل أراه، لكن لِمَ هو مستلق هكذا، في السماء، مع سهم في ذيله؟».

اعترف «جناح النسر»: «لا أعرف السبب بالضبط، أحسب أن صياداً ما كان يطارده. ربما يستطيع لاغو إخبارنا».

أرخى «لاغو» الستارة وعاد إلى مكانه قرب النار.

وقال مخاطباً «نجمة الصبح»: «قلتِ إنه مرّ وقت لم يكن فيه صيف على الأرض، وكنت محقّة في ذلك. حتى وجد الدّلق طريقة ينزل بها الصيف من السماء، كانت الأرض تكسوها الثلوج، ولم يكن يقطنها إلا الصقيع. لو لم يكن أو - جيغ مستعداً للتضحية بحياته، لكي ننعم جميعاً بالدفء، لكان حكم ريح الشمال العالم بأسره، مثلما يحكم الآن أرض الجليد».

(1) Marten، كما في النص اسم آخر للفيشر (م).

ثم استوى كلّ من «نجمة الصبح» و«جناح النسر» على الحصيرة الناعمة التي كانت ذات مرة المعطف الشتوي لـ «مو - كا»، الدب، وروى لهما «لاغو» قصة مجيء الصيف؛

في الغابة البرية التي تقع على تخوم البحيرة الكبرى، «غوتشي غومي»، كان يعيش صياد عظيم يُدعى «أو- جيغ». لا أحد كان يعرف الغابة أفضل منه؛ حيث يضيع الآخرون دونما أثر، كان يجد طريقه بيسر وسرعة، في الليل أو النهار، عبر الجنبات والأدغال. وكان يتبع الظبي الأحمر أينما مضى؛ كما لم يكن الدب بقادر على الفرار منه. كان ماكراً كثعلب، صبوراً كذئب، وسريعاً كديك رومي حين يشتمّ رائحة الخطر.

حين كان «أو - جيغ» يرمي سهماً فإنه دائماً يصيب الهدف. وحين ينطلق في رحلته، لم تكن عاصفة أو ثلوج تثنيه عن هدفه. كان يفعل كل ما يقول إنه سيفعله، وكان يفعله بمهارة.

هكذا صار بعض الرجال يعتقدون أن «أو - جيغ»، هو «مانيتو»، الاسم الذي يطلقه الهنود على من يملك قوى سحرية. وكان هذا أكيداً: كلما أراد «أو - جيغ» أن يبدّل شكله إلى ذلك الحيوان الصغير المعروف باسم «الدّلق»، أو «المارتن» كان يستطيع ذلك.

ربما لهذا السبب كانت تربطه ببعض الحيوانات صداقة وثيقة، وكانت مستعدة دائماً لمساعدته إذا ما طلب ذلك منها. بين تلك الحيوانات ثعلب الماء، والقندس، والسنور البري، والشّره والغرير. وجاء وقت، كما سنرى، بات بالفعل في أمسّ الحاجة إلى خدمات هذه الحيوانات، ولم تتوان عن مدّ يد العون له.

كان «أو - جيغ» متزوجاً من امرأة يحبّها حباً جمّاً، وكان لهما صبيّ في الثالثة عشرة، وعد بأن يكون صياداً عظيماً كوالده. وقد أظهر باكراً مهارة عظيمة في استعمال القوس والنشاب؛ فإذا ما تسبّب طارئ ما بألا يتمكّن «أو - جيغ» من تأمين الطرائد لعائلته، فقد كان ابنه واثقاً من أنه يستطيع أن يصطاد قدر ما يحتاج إليه من السناجب والديكة الرومية البرية لإعالتها. ولم يكن ينغّص على الفتى سعادته سوى البرد الشديد. كانت لديهم كسوات دافئة من جلد الغزلان والفراء، والكثير من حطب الغابة لإبقاء جذوة نيرانهم مشتعلة. لكن رغم هذا كان الصقيع محنة عظيمة، إذ كان دائماً شتاء، ولم يكن الثلج الكثيف يذوب البتة.

وقد سمع بعض الحكماء بأن السماء ليست فحسب سقف عالمنا، بل إنها أرض عالم رائع بعيد؛ أرض تغني فيه الطيور زاهية الألوان بعذوبة في فصل دافئ حلو يسمّى الصيف. كانت تلك

قصة جميلة يحب الناس تصديقها، ويعتبرونها منطقية بما فيه كفاية، ما دامت الشمس بعيدة جداً عن الأرض، وقريبة جداً من السماء نفسها.

اعتاد الفتى أن يحلم بالصيف، ويتساءل عما يمكنه فعله لجلب الصيف إلى الأرض. وهذا سيكون أعظم الأمور قاطبة.

أحياناً كان البرد يشتدّ إلى درجة أنه حين يذهب الفتى إلى الغابة يشعر بأصابعه تتجلد من البرد القارس. فلا يعود قادراً على رمي سهامه، ويضطر للعودة إلى البيت من دون أيّ صيد. وذات يوم مشى بعيداً في الغابة، وكان عائداً خالي الوفاض، حين رأى سنجاباً أحمر يجلس على قائمتيه الخلفيتين على جذل[1] شجرة. كان السنجاب يقضم كوزاً من الصنوبر، ولم يحاول الهرب حين اقترب منه الصياد الشاب. ثم تكلم الحيوان الصغير:

«يا حفيدي، هناك ما أودّ أن أخبرك به وسيسرّك سماعه. أبعد سهامك ولا تحاول صيدي، وسأسدي إليك نصيحة جيدة».

فوجئ الصبي؛ لكنه أعاد سهمه إلى جعبته.

(1) ما يتبقى من الشجرة بعد قطع جذعها (م).

قال السنجاب: «الآن، أصغ جيداً لما سأقوله. الأرض دائماً مغطاة بالثلج والجليد يقرص أصابعك ويتسبّب لك بالتعاسة. أنا مثلك لا أحب البرد. وللحقيقة ليس لديّ إلا القليل مما يمكنني أكله في هذه الغابة بسبب الجليد الذي يغطي الأرض باستمرار. تستطيع أن ترى مدى هزالي، إذ ليس ثمة الكثير من الدسم في كوز الصنوبر. فإذا ما استطاع أحدهم أن ينزل الصيف من السماء فستكون نعمة عظيمة».

فقال الصبي: «القصة صحيحة إذن! أنه ثمة في أعالي السماء أرض يحلو العيش فيها حيث يبقى الشتاء فقط لبضعة أقمار[1]؟».

قال السنجاب: «أجل، هذا صحيح، ونحن الحيوانات نعرف هذا منذ زمن بعيد. فذات مرة رأى «كين - أو»، النسر المحارب، الذي يطير على مقربة من الشمس، ثقباً في السماء. وقد أحدث هذا الثقب واي - واسي - مو، البرق، في عاصفة عظيمة غطّت الأرض بالمياه، وقد شعر النسر المحارب بالهواء الدافئ يتسرب؛ لكن الناس الذين يعيشون فوق سدّوا الشق فوراً، ولم يرشح شيء من السماء ثانية».

(1) أشهر، وكما سبق القول في سياق قصة أخرى فالقمر قد يعني أو أسبوعاً أو شهراً حسب السياق الذي يرد فيه. أما اليوم فهو «شمس» (م).

قال الصبيّ: «إذن فقد كان حكماؤنا محقّين. يستطيع أو - جيغ، أبي، أن يفعل كل ما يصمّم عليه. أتظن أنه لو حاول كفاية، يمكنه اختراق السماء، وينزل لنا بالصيف؟».

هتف السنجاب: «بالطبع، ولهذا السبب أكلمك. إن أباك هو مانيتو. إذا ما رجوته بشدة، وأخبرته بمدى تعاستك، فسيحاول بكلّ تأكيد. حين تعود إلى البيت أره أناملك التي قرصها البرد. أخبره كيف تجول اليوم كله في الثلج وكم تصعب عليك العودة إلى البيت. أخبره أنك ذات يوم قد تتجلّد من البرد ولا تعود على الإطلاق. وعندئذ سيفعل كلّ ما تطلبه منه، لأنه يحبّك حباً جماً».

شكر الصبي السنجاب، ووعده بأن يتبع نصيحته. ومنذ تلك اللحظة لم يدع والده ينعم بلحظة هدوء، حتى قال له «أو - جيغ» أخيراً:

«يا بني، إن ما تطلب مني فعله لأمر جلل، ولا أعرف ما قد تكون عاقبته. لكن قواي كمانيتو أعطيت لي لفعل أعمال الخير، وليس من استعمال أفضل لها من أن أحاول إنزال الصيف من السماء، وجعل العالم مكاناً أفضل للعيش فيه».

ثم حضّر مأدبة دعا إليها أصدقاءه، ثعلب الماء[1]، والقندس، والسنور البرّي[2]، والغرير[3]، والشّره[4]؛ وتشاوروا جميعاً في المسألة لكي يقرّروا أفضل ما يمكن فعله. وكان السّنور البري أول المتكلّمين، فقد سافر بعيداً على قوائمه الطويلة، ورأى الكثير من الأماكن الغريبة. إضافة إلى أنك إذا كنت تملك عينين ثاقبتين، ونظرت إلى السماء في ليلة صافية لا يكون القمر فيها مشرقاً، فتستطيع رؤية كوكبة من النجوم لطالما شبّهها الحكماء به. وهذا أسبغ عليه قدراً من الأهمية، خصوصاً في مسائل من هذا القبيل؛ لذا حين بدأ بالكلام، أصغى إليه الآخرون بكلّ وجل واحترام.

قال: «ثمة جبل عال، لم يره أحد منكم قبلاً. لا أحد رأى قمته لأنه دائماً مغطى بالغيوم؛ لكن قيل لي إنه أعلى جبل في العالم وإنه يكاد يلامس السماء».

بدأ ثعلب الماء بالضحك. وهو الحيوان الوحيد الذي يمكنه فعل هذا؛ أحياناً يضحك دونما سبب معيّن، إلا إذا حسب نفسه أذكى من سائر الحيوانات وأراد استعراض ذكائه.

---

(1) ثعلب الماء أو القضاعة Otter: حيوان طويل الذيل قصير القوائم، يعرف بفروه (م).
(2) السنّور البري أو الوشق Lynx: حيوان من فصيلة السنانير أصغر من النمر (م).
(3) الغرير badger: حيوان قصير القوائم يحفر جحره في الأرض (م).
(4) الشّره Wolverine: حيوان ثديي نهم من فصيلة ابن عرس (م).

سأله السنّور البري: «علام تضحك».

أجابه ثعلب الماء: «آه، لا شيء، كنت أضحك فحسب».

قال السنّور البرّي: «سوف يتسبّب لك هذا بالمتاعب ذات يوم، فقط لأنك لم تسمع بالجبل تحسبه غير موجود».

سأله «أو - جيغ»: «أتعرف كيف يمكن الوصول إليه؟ إذا استطعنا الصعود إلى قمته، قد نجد طريقة لاختراق السماء. تبدو هذه خطة جيدة».

قال السنّور البرّي: «هذا ما كنت أفكّر به، صحيح أنني لا أعرف مكانه. لكن على بعد قمر من هنا، يعيش مانيتو له شكل مارد. وهو يعرف بمكانه وسوف يخبرنا إذا ما سألناه».

إذن، ودّع «أو - جيغ» زوجته وابنه، وفي اليوم التالي قاد السنّور البري الرحلة مع «أو - جيغ» والآخرون يسيرون على مقربة منه. كان الأمر كما قال السنّور تماماً، فقد وصلوا إلى كوخ خشبي ووجدوا المانيتو يقف على الباب. كان رجلاً غريب الهيئة، لم يروا له مثيلاً من قبل، له رأس ضخم، وثلاث عيون، إحداها في وسط جبهته فوق العينين الأخريين.

دعاهم إلى الدخول، وقدّم لهم بعض الطعام، لكن كان شكله غريباً جداً، وكذلك حركاته، إلى درجة أنه لم يتمكّن ثعلب الماء من منع نفسه من الضحك. وعندئذ احمرّت العين التي في جبهة الساحر، وصارت كالجمر، وانقضّ على ثعلب الماء، الذي بالكاد تمكّن من الفرار من الباب، إلى البرد القارس وظلمة الليل، من دون أن يتذوق لقمة من الطعام.

بعد رحيل ثعلب الماء بدا المانيتو مرتاحاً، ودعا البقية إلى أن أن يبيتوا الليلة عنده. وهذا ما فعلوه، ولاحظ «أو - جيغ»، الذي ظلّ صاحياً في حين نام رفاقه، أن المانيتو أغمض عينيه، بينما ظلّت العين الثالثة التي على جبهته مفتوحة.

في الصباح قال المانيتو لـ «أو - جيغ»، بأن يسافر قدماً نحو نجم الشمال، وأنه بعد عشرين شمساً سيصل إلى الجبل. «وبما أنك أنت أيضاً مانيتو، قد تتمكن من التسلّق إلى القمة، وأن تأخذ رفاقك معك. لكنني لا أعدك بأنك ستتمكن من النزول بعدئذ».

«إذا كانت قمة الجبل قريبة كفاية من السماء فهذا كل مبتغاي».

استأنفوا الرحلة. وفي الطريق التقوا ثعلب الماء الذي ضحك ثانية حين رآهم، لكن هذه المرة من شدّة سروره لرؤياهم ولحصوله على بعض اللحم الذي ادّخره له «أو - جيغ»، من طعام المانيتو.

بعد عشرين يوماً وصلوا إلى الجبل. ثم بدأوا بتسلقه، حتى عبروا الغيوم، وصعدوا مجدداً حتى توقفوا أخيراً وقد انقطعت أنفاسهم، وجلسوا يستريحون على أعلى قمة في العالم. ولسرورهم الشديد، بدت السماء شديدة القرب حتى كان في وسعهم لمسها بأيديهم.

ملأ «أو - جيغ» ورفاقه غلايينهم. لكن قبل أن يشرعوا بالتدخين، ناجوا الروح الكبرى، داعين إياه أن يوفّقهم في مسعاهم. وعلى طريقة الهنود الحمر أشاروا إلى الأرض، إلى السماء فوقهم، وإلى الرياح الأربع.

قال «أو - جيغ» حين فرغوا من التدخين: «الآن، من منكم يستطيع القفز عالياً».

ابتسم ثعلب الماء.

فأمره «أو - جيغ»: «فلتقفز إذن».

فقفز الثعلب وارتطم رأسه بالسماء. لكنها كانت قاسية فوقع الثعلب وارتطم بالأرض، وبدأ ينحدر على سفح الجبل، وسرعان ما غاب عن الأنظار وما رأوه ثانية.

قال السنّور البرّي: «عجيب! إنه يضحك في الجانب الآخر من فمه».

ثم جاء دور القندس الذي ارتطم أيضاً بالسماء ووقع أرضاً. ولم يكن حظ السنّور البري والغرير أفضل، وقد آلمهما رأساهما وقتاً طويلاً بعد القفز.

قال «أو - جيغ» للشّره: «الأمر كله يعتمد عليك، أنت الأقوى بينهم. هل أنت مستعد؟ الآن، اقفز!».

قفز الشره لكنه سقط على قدميه كاملاً وسليماً.

صاح «أو - جيغ»: «رائع، حاول ثانية!».

هذه المرة أحدث انبعاجاً في السماء.

هتف «أو - جيغ»: «إنها تتصدّع! هيا، مرة أخرى!».

وقفز الشّره مرة ثالثة. وإذا به يخترق سقف السماء، ويعبره إلى الجهة الأخرى غائباً عن النظر، فلحق به «أو - جيغ» فوراً.

رأوا أرضاً بديعة تحيط بهم. وقف «أو - جيغ» الذي أمضى حياته كلها بين الثلوج ساهماً يحلم، متسائلاً هل ما كان يراه صحيحاً. كان قد ترك وراءه عالماً أجرد أبيض بفعل الشتاء، مياهه متجلّدة دائماً، عالماً بلا لون ولا أغنيات. أما الآن فقد بلغ أرضاً ليست إلا سهلاً أخضر مترامي الأطراف، تنتشر فيه الأزهار من كل لون وجنس، وتغني الطيور الزاهية بين الأغصان المورقة المحمّلة بالثمار الذهبية. وتخترق فيه الجداول المروج، وتتدفّق إلى بحيرات رائعة، والهواء معتدل يعبق بضوع ملايين الزهور. إنه الصيف.

انتشرت على ضفاف البحيرة الأكواخ التي يعيش فيها سكّان السماء. كانت الأكواخ فارغة، لكن أمامها وضعت أقفاص فيها الكثير من الطيور الرائعة. وكان الصيف الدافئ قد بدأ يتسرّب من الثقب الذي أحدثه الشّره، وسارع «أو - جيغ» إلى فتح أبواب الأقفاص، لكي تفرّ منها الطيور.

رأى سكان السماء ما يحدث، فصرخوا صرخة عظيمة. غير أن الربيع والصيف والخريف كانت قد فرت من الفتحة إلى العالم في الأسفل، ومعهم الكثير من الطيور.

كما نجح الشّره في بلوغ الثقب والهبوط إلى الأرض قبل أن يقبض عليه سكّان السماء. أما «أو - جيغ» فلم يكن محظوظاً. كان قد تبقّى بعض الطيور التي يعرف أن ابنه سيحبّ رؤيتها، فذهب لكي يفتح الأقفاص. وفي الأثناء كان سكّان السماء قد سدّوا الثقب ثانية وفات الأوان بالنسبة إلى «أو - جيغ».

حين بدأ سكّان السماء بمطاردته غيّر شكله إلى دلق وهرع في السهل في اتجاه الشمال. وعلى تلك الهيئة أمكنه العدو بسرعة أكبر، ناهيك عن أنه حين يتخذ هذا الشكل لا يسع سهم جرحه إلا إذا أصاب بقعة محدّدة في أعلى ذيله.

لكن سكّان السماء كانوا شديدي السرعة فتسلّق الصياد شجرة عالية. وكان هناك رماة بارعون رموا الكثير من السهام حتى تمكّن أحدها من إصابة البقعة القاتلة في ذيله. وعندئذ علم الدّلق أن أوانه قد حان.

رأى الدّلق أن بعض أعدائه يحملون رمز أو إشارة قبيلته، فناداهم قائلاً: «يا أبناء عمومتي، أرجوكم الرحيل وتركي هنا وحيداً».

استجاب سكّان السماء لطلبه. وحين رحلوا نزل عن الشجرة، وجاب المكان لبعض الوقت، باحثاً عن فتحة ما في السهل الفسيح يمكنه العودة من خلالها إلى الأرض. لكنه لم يجد أي فتحة؛ لذا أخيراً، وقد اعتراه التعب والوهن، استلقى على أرض السماء، التي من خلالها تُمكن رؤية السماء من العالم في الأسفل.

قال متنهداً برضا: «لقد وفيت بوعدي، وسوف يستمتع ابني بالصيف ومعه جميع سكّان الأرض. عبر العصور الآتية سأكون إشارة في السماء وسيذكر اسمي بالخير».

وهكذا بقي الدّلق في السماء، حيث تمكن رؤيته بوضوح، في ليلة صافية، مع السهم في ذيله. يسميها الهنود نجوم الدّلق، «أو - جيغ - آن - نانغ»، لكن الرجل الأبيض يسمّي هذه الكوكبة «الدبّ الأكبر».

الجندب

يُحكى أنه كان هناك شاب هندي مرح مشهور بقدرته على القفز عالياً، وبحبه للحيل والمقالب، فصار مشهوراً بين قومه باسم الجندب. كان شاباً طويلاً وسيماً، دائماً يمارس أعمال الشيطنة المختلفة، ورغم ظرف مقالبه أحياناً، فقد كان كثيراً ما يبالغ بها، حتى تسبّب له الندم.

كان الجندب يمتلك كلّ ما يرغب به الشاب الهندي. فتمتلئ خيمته بمختلف أنواع الغلايين والأسلحة، وفراء القاقم[1] ومختلف أنواع الفراء الثمينة الأخرى، وقمصان جلد الظبي المشغولة بريش الشيهم[2]، والكثير من الأحذية المطرزة بالخرز، والأحزمة المطرزة بالوامبام، التي تفوق ما يمكن أن يمتلكه شخص واحد.

الحقيقة أن الجندب لم يحصل على هذه الأشياء بمهارته الخاصة ولا بشجاعته كصيّاد. بل بخضّ قطع من العظام والأخشاب

(1) القاقم Ermine: حيوان من فصيلة ابن عرس يشتهر بفرائه (م).
(2) الشيهم أو النيص أو القنفذ Porcupine: حيوان شائك من القوارض (م).

الملونة في زبدية من الخشب، ثم رميها على الأرض. أي أن الجندب كان مقامراً، وكان محظوظاً جداً بحيث أنه دائماً ما يربح بسهولة من الآخرين الأشياء التي حصلوا عليها بالكدّ والتعب.

وإذا كان الناس يتحمّلون أفعاله ويضحكون من بعض مقالبه المجنونة، فذلك فقط بسبب براعته في الرقص. بل لم يكن من راقص يضاهيه براعة. فإذا ما كان ثمة حفل زفاف أو مأدبة احتفالاً بالظفر في رحلة صيد ما، فمن سوى الجندب يمكنه تقديم العروض المسلية؟

كانت خطواته على الأرض، حين يرقص، خفيفة إلى حدّ أنها لا تترك أثراً على الأرض. وقد اعتاد أن يرقص في مختلف المناسبات؛ حين يذهب الهنود إلى الحرب، أو حين يحتفلون بمواسم الذرة. أما رقصته الأهم فهي رقصة جنونية مدوّخة، تتضمن الكثير من القفز والدوران بحيث تدوّخ كلّ من يشاهدها.

فكان الجندب، حين يرقص هذه الرقصة، يتحوّل إلى نوع من الدوّامة البشرية. يدور ويدور بسرعة شديدة حتى تحوم حوله وريقات الشجر الجافة والغبار، ثم يختفي هو نفسه عن النظر ولا يعود يبدو للناظر سوى غيمة مدوّمة.

ذات مرة، حين اتخذ المانيتو العظيم «مان –آ– بوزو» زوجة، وجاء للعيش مع القبيلة، لكي يعلّمهم أحسن سبل العيش، رقص الجندب في حفل زفافه. كان يسمّيها رقصة المتسوّل، ويا لها من رقصة! على ضفاف الأزرق الكبير، «غيتشي غومي»، تحوّل الرمل بفعل رقصته تلك إلى كثبان صغيرة. ولو سألت لاغو لقال لك إن هذه الكثبان هي من عمل الجندب، الذي جعل الرمل يحوم، ويتكوّم حتى صار كثباناً.

وإذا كان الجندب قد حضر حفل الزفاف ورقص هذه الرقصة المجنونة، فقد فعل ذلك إرضاء لنفسه، واستعراضاً لمهاراته، أكثر مما تكريماً لـ «مان– آ– بوزو». ذلك أن الجندب لم يكن يحترم أحداً في حقيقة الأمر. حين كان جد لاغو منغمساً في سرد قصة مشوّقة، ويصل الأخير إلى الجزء الأهم منها، اعتاد الجندب أن يتثاءب ويتمطّى ويقول بصوت عال إنه سمع هذه القصة من قبل.

والأمر سيان مع «مان – آ– بوزو». فقد كان هذا المانيتو العظيم، وهو ابن ريح الغرب، «ماد – جي – كي – ويس»، يمتلك قوى سحرية يوظّفها في خدمة القبيلة. فهو من يصوم ويصلي، لكي يحصل قومه على الطعام الجيد بدلاً من الأشياء

البرية في الغابة، وكانت صلواته تستجاب في موسم حصاد الذرة الهندية. ثم عندما هبط ملك الغربان «كا - غا - غي»، مع عصابته من اللصوص السود، لكي يقتلع البذور، كان «مان - آ - بوزو»، من نصب له الشرك، وأوثقه سريعاً إلى سارية خيمته، لكي يجعل منه عبرة لمن اعتبر.

لكن لم يكن لطيبة «مان - آ - بوزو» وحكمته أثر على الجندب، «بووا»، كان يقول: «لماذا يزعج هنديّ نفسه بزرع الذرة، في حين يمكنه استعمال قوسه ونشاّبه وصيد ظبي سمين». ثم تحسّس جعبته المصنوعة من جلد الذئب، وخضّ قطع الخشب والعظام، قائلاً لنفسه: «ما دمت أملك هذه فلا أحتاج إلى شيء. ففي نهاية المطاف جميع من عداي يعمل في خدمة من يعرف كيف يشغّل عقله».

مشى في القرية مزهواً بنفسه متشامخاً برأسه، حاملاً مروحته من ريش الديك الرومي، وقد علت شعره الطويل الأسود ريشة بجعة، وتدلى من عقبيه ذيل من الثعالب. فإذا ما أضفنا قميصه المصنوع من جلد الظبي والمشغول بفرو القاقم، وطماقيه وزوج حذائه المزينة بالخرز وبريش الشيهم، لقلنا إن مظهره كان رائعاً حقاً. خصوصاً وأن سيكون هنالك رقص تلك الليلة، والجندب

الذي كان محبوباً من الفتيات والنساء، هندم نفسه جيداً للمناسبة. فطلى وجهه بخطوط زرقاء وقرمزية، وفرق شعره الأسود الموشى بالأزرق الذي يلمع بالزيت في الوسط، وتركه يتدلى على كتفيه في خصل جدلت بحزم الميرمية[1]. ورغم نعت بعض المحاربين له «شاو - غو - دايا»، أي الجبان، وسخريتهم من تأنقه، فإنه قلما كان يكترث. ألا يستطيع أن يهزمهم جميعاً في لعب الكرة أو لعبة «تسديد الحلقات المعدنية»، وألا تحب جميع الجميلات ملاحة وجهه؟

في انتظار الحفلة رغب الجندب بتزجية الوقت بطريقة مسلية. وإذ جعل يسترق النظر من باب إحدى الخيم رأى مجموعة من الفتيان يقتعدون الأرض حول الشيخ لاغو وهو يروي لهم إحدى حكاياته. فإذا به يصيح:

«عجباً! أليس لديكم عمل أفضل تفعلونه؟ لديّ لعبة جديرة بأن تلعبوها».

---

(1) Sweetgrass أو Vanilla Grass: ضرب من النبات الأمريكي الاستوائي الذي تعطّر به الأطعمة، وأحياناً يستعمل استعمالاً دينياً فيعلق على أبواب المنازل بسبب رائحته، ويعرف بالميرمية الأمريكية التي يحشو بها الهنود الحمر أيضاً غلايين التدخين (م).

ثم أخرج من جرابه قطع العظام والخشب الثلاث عشرة عشر، وراح ينقّلها من يد إلى يد. بيد أن أحداً لم يعره اهتماماً. ففي نهاية الأمر، كان الجندب «يفكّر بعقبيه أكثر مما برأسه». فبعد أن ظهرت واضحة للعيان شدّة مكره ومهارته في اللعب لم يعد يرغب أحد باللعب معه.

«تباً»، قال مدمدماً، وهو يستدير مبتعداً. «أعرف ماذا جرى. هذا الورع مان – آ – بوزو، كان يعظهم مجدداً. لقد سئمت العيش في هذه القرية. آن أوان أن ارحل وأجد مكاناً يمكن أن يجلس فيه الشاب ويمرح مع السكواو[1]».

مضى مصمماً على الأذية. حتى إنه نسي أمر الرقصة، وأخذ يتساءل عما يمكنه فعله لكي يتسلى. وحين وصل إلى تخوم القرية، مرّ بخيمة «مان – آ – بوزو»، فقال في سرّه: «أحبّ أن أحضّر له مقلباً ما، لكي يتذكرني بعد رحيلي». لكنه كان يعي تماماً أن «مان – آ – بوزو» أقوى منه، فتردّد لبرهة، غير واثق من خطوته التالية.

---

(1) Squaw: امرأة او زوجة أو فتاة... رغم أن هذه الكلمة تنتمي إلى السكان الأصليين لكنها في الاستعمال المعاصر باتت تعدّ عنصرية بسبب نمط استعمال البيض لها بطريقة مهينة، على غرار لفظة «نيغرو»، الزنجي (م).

أخيراً اقترب من الباب وأصاخ السمع، لكنه لم يسمع أيّ صوت، فقال مبتسماً: «هذا رائع! ربما لا أحد في البيت». ثم دار على نفسه أمام الباب على ساق واحدة، مثيراً غيمة من الغبار. لم يخرج أحد من الخيمة؛ لكن على عمودها، كان ملك الغربان «كا – غا – غي»، يرفرف بجناحيه الأسودين، قبل أن ينعب نعيباً مزعجاً. فصاح به الجندب:

«أيها الأحمق! أيها الأحمق المزعج!».

ثم قفز فوق الخيمة وعاد إلى مكانه فصاح الغراب صيحة أقوى من السابق. لكن في داخل الخيمة كان يخيّم الصمت.

تجرّأ الجندب أكثر. واقترب ثانية من ستارة الباب المصنوعة من جلد الثور وهزّها قليلاً. فلم يجب أحد؛ فأزاح الباب بحذر، وجازف باستراق النظر إلى الداخل. ثم ضحك بخفة. كانت الخيمة فارغة.

هتف: «هذه فرصتي! مان – آ – بوزو، ليس هنا، وكذلك زوجته الحمقاء. سأؤدي التحية قبل عودتهما، وبعدئذ سأرحل إلى الأبد».

قال هذا ودخل إلى الخيمة وبدأ يقلب الأشياء رأساً على عقب. طرح جميع الأواني في زاوية، وملأ أجربة الماء برماد الموقد، وبعثر الفراء الفاخرة والألبسة المزينة والسهام وأحزمة «الوامبام» هنا وهناك. حين انتهى بدا كأن رجلاً مجنوناً قد مرّ بالمكان. لم يكن من امرأة أكثر حرصاً على النظافة والترتيب أكثر من زوجة «مان - آ - بوزو»، وكان الجندب يعلم أن فعلته هذه ستكيدها أكثر من أي شيء آخر يمكن أن يفعله.

«والآن هذا يكفي بالنسبة إلى مان - آ - بوزو»، قال وهو يغادر الخيمة مسروراً بفعلته.

«كاو، كاو!»، صاح ملك الغربان.

«كاو!»، أجابه الجندب محاكياً إياه، ساخراً منه. «يا لك من حيوان أليف. أيبقيك مان - آ - بوزو هنا بسبب طلعتك البهية؟ أم بسبب صوتك الشجي؟».

ثم قفز إلى عمود الخيمة وأمسك بخناق الغراب وراح يدور ويدور حتى أزهق روحه. وتركه معلقاً هناك كإهانة لـ «مان - آ - بوزو».

أصبحت الآن معنوياته عالية، فمضى إلى الغابة، راقصاً ومغنياً، مسلياً السناجب. كانت هناك صخرة عالية تطلّ على البحيرة، وتكشف أميالاً شاسعة من البلاد[1]. فتسلقها الجندب، ورأى القرية بكلّ وضوح، وقرّر البقاء هناك بانتظار عودة «مان - آ - بوزو» إلى بيته لكي يرى ردة فعله.

بينما هو جالس هناك، حلّقت طيور كثيرة على مقربة من رأسه. كان «مان - آ - بوزو» يسمّي هذه الطيور دجاجاته ويحيطها بحمايته. إلا أن الجندب صار شديد التهور. فجعل يرمي الطيور بسهامه لمجرد أنها ملك «مان - آ - بوزو»، لا لحاجته إلى الطعام. هوت الطيور واحداً بعد الآخر ، وكان الجندب يرميها عن الصخرة إلى ضفة البحيرة في الأسفل.

أخيراً رآه «كاي - أوشك»، النورس، وهو يرتكب هذه الفظائع، فصاح صيحة الإنذار. «إن الجندب يقتلنا، فروا يا إخوتي! فروا وأخبروا حاميكم أن الجندب يردينا بسهامه».

(1) Country: تستعمل هذه الكلمة للدلالة على مجمل الأرض التي تعيش عليها القبيلة وتتحرّك في مجالها، لكنها ليست «البلد» بالمعنى المتعارف عليه، تماماً كما كلمة People لا تعني الشعب بالمعنى المألوف للكلمة، بل تعني القبيلة المحدّدة ولذلك آثرت ترجمة هذه الكلمة إلى «قوم» (م).

حين بلغ الخبر مسامع «مان - آ - بوزو»، اشتعلت عيناه شرراً، وصاح بصوت راعد:

«يجب أن يموت الجندب على فعلته هذه. لن يمكنه الفرار مني. ولو طار إلى آخر الأرض فسأتبعه وأقتصّ منه».

ثم انتعل خفيه السحريين الذي يستطيع بكل خطوة يخطوها بهما أن يقطع ميلاً كاملاً من الأرض. وارتدى قفازه السحري الذي يستطيع بضربة واحدة به تفتيت أقسى الصخور. ثم بدأ بالمطاردة.

كان الجندب قد سمع استغاثة النورس وعرف أن عليه الفرار. هو أيضاً يمكنه الركض. كان سريعاً إلى حدّ أنه يمكنه أن يرمي سهماً ويصل إلى هدفه قبل وقوع السهم أرضاً. كما كانت لديه المقدرة على تغيير شكله، فكان من المستحيل تقريباً قتله. فإذا ما دخل إلى بدن قندس على سبيل المثال، وتعرض القندس للقتل، تجده قد غادر بدنه قبل أن يبرد، وعاد بشراً من جديد، على أهبة الاستعداد لمغامرة جديدة.

لكنه قبل كل شيء كان يثق بسرعة قدميه وبمكره. في أعقابه كان «مان - آ - بوزو» ينفث شرر الانتقام، مما جعل الجندب يفرّ

بسرعة ظلّ. عبر الغابة والهضاب مضى أسرع من أرنب وحشي. وكان مطارده دائماً في أثره. ومرة وصل المانيتو إلى بقعة لا يزال العشب فيها حاراً ومائلاً من مرور الجندب عليه، لكن الأخير كان قد فرّ. وذات مرة لمحه من قمة جبل في مرج بالأسفل، وكان الجندب قد أظهر شكله عمداً، ساخراً من المانيتو العظيم، متحدّياً إياه. لا ريب في أن الجندب كان مغروراً بعض الشيء.

أخيراً تعب من الركض. لا بسبب ألم أصاب رجليه. بل لم يكن يحبّ هذا النوع من الحياة، وكان يحبّ دائماً الأشياء الجديدة. سرعان ما وصل إلى غدير حيث كان ثمة سدّ يردّ المياه. كان الجندب قد ركض نحو ألف ميل في ذلك اليوم محصياً كل المنعطفات والتعرجات. كان حاراً ومتسخاً، وبدت له البركة بزنابقها وقصبها، باردة منعشة. ومن بعيد تناهى إلى مسامعه صوت ضعيف؛ كان ذلك صوت «مان – آ – بوزو»، وهو يصيح صيحة الحرب[1] المدوية.

قال الجندب: «يا له من مزعج! أتمنى أن أكون قندساً أعيش هناك في أعماق المياه، حيث لا يزعجني أحد».

(1) صيحة الحرب War Cry: معروفة ومستعملة في مختلف الحضارات القديمة والحديثة، خلال الحروب، وقد ورد ذكرها في إلياذة هوميروس، أما بالنسبة إلى سكان أمريكا الأصليين، فهذه الصيحة غالباً ما تكون محاكاة لأصوات أحد الحيوانات المخيفة والمزعجة (م).

فبرز فوراً من الماء رأس قندس يجعل ينظر إليه بتوجّس.

شرح له الجندب: «لا تخف، لقد تركت قوسي ونشابي هناك على العشب، كما كنت أفكّر أنني أحبّ أنا نفسي أن أصير قندساً. ما رأيك بهذا؟».

«عليّ أن أستشير آميك[1]، زعيمنا»، أجابه الحيوان الودود.

غاص إلى الأعماق، وسرعان ما برز رأس «آميك» من المياه وتبعه عشرون قندساً آخر. فخاطبه الجندب قائلاً:

«دعني أصبح واحداً منكم، لديكم مأوى جميل هنا في هذه المياه المنعشة الصافية وقد سئمت من حياتي هذه».

سرّ «آميك» لأن شاباً هندياً وسيماً كهذا يرغب في الانضمام إلى قبيلته. لكنه أجابه:

«لا أستطيع مساعدتك، قبل أن تنزل في الماء، أتظن أنك تستطيع أن تغيّر شكلك إلى واحد منا؟».

«هذا أمرٌ يسير».

خاض في الماء حتى خاصرته؛ وإذا بذيل عريض مسطّح ينبت

(1) Ahmeek: بلغة السكان الأصليين تعني القندس، وهي اليوم اسم قرية في ولاية متشيغان بالولايات المتحدة الأمريكية (م).

له. ثم مضى أعمق؛ وفي حين غمرت مر المياه رأسه تحوّل إلى قندس ذي فرو أسود لمّاع، وقوائم متشابكة كالبط. ثم غاص إلى الأعماق مع الآخرين، وكانت أرضية البركة مليئة بالأغصان وزنود الأشجار.

شرح له «آميك»: «هذا هو القوت الذي خزّناه للشتاء. نحن نأكل اللحاء، وسرعان ما ستسمن مثل أيّ واحد منا».

فأجابه الجندب: «لكنني أريد أن أكون أكثر سمنة، أريد أن أصبح أضخم منكم[1] بعشرة أضعاف».

قال «آميك»: «مثلما تشاء، يمكننا مساعدتك لكي تكبر بقدر ما تشاء».

وصلوا إلى مسكن القنادس المكوّن من حجرات كثيرة، فاختار الجندب الحجرة الأكبر. وقال:

«الآن، ائتوني بكل أنواع الطعام، وحين أصير سميناً بما فيه الكفاية سأصبح زعيمكم».

---

(1) رغم أن المخاطب حيوانات غير عاقلة، لكن هنا كما في معظم الحكايات الشعبية فإن الحيوانات غالباً ما تكون ناطقة مفكرة تتداخل حيواتها بحيوات البشر، لذلك ضمير المخاطب منكم (م).

لم تبد القنادس أيّ مانع. فراحت تأتي له بكميات من أشهى اللحاء، وكان الجندب مسروراً بحياة الكسل التي يعيشها، فلم يفعل أكثر من الأكل والنوم. صار يكبر ويكبر، حتى صار حجمه أخيراً عشرة أضعاف حجم «آميك»، وصار بالكاد يمكنه التحرك في غرفته. كان بالغ السعادة.

لكن ذات يوم جاء القندس الذي يحرس سطح الماء إلى الجندب، وكان في حال من الهيجان. وقال له لاهثاً:

«الصيادون في إثرنا، لابدّ من أنه مان – آ – بوزو نفسه، ومعه صيّادوه. إنهم يحطّمون سدّنا».

ولم يكد ينهي كلامه حتى أخذت مياه البركة تنخفض شيئاً فشيئاً؛ ثم تبع ذلك صوت الأقدام حيث كان الصيادون يضربون سقف المسكن بأقدامهم لتحطيمه.

خرجت جميع القنادس من المسكن، وفرت إلى جدول، واختبأت هناك في بعض البرك العميقة، أو سبحت مع التيار. حاول الجندب جهده للحاق بها، لكنه لم يستطع. كان الباب أصغر من أن يتسع له للخروج. وحين حاول اقتحامه علق فيه.

ثم انهار السقف، وبرز رأس صياد هندي.

«تاي – يو!»، نادى، «تات – تا – يو! أترون هذا! لابدّ من أنه مي– شو –ميك، ملك القنادس».

جاء «مان – آ – بوزو»، وألقى عليه نظرة واحدة. وقال:

«إنه الجندب، مظهره هذا لا يخدعني. إنه الجندب في بدن قندس».

فانهالوا عليه بهراواتهم، وعلّق ثمانية هنود طوال جثته على السواري وحملوه ظافرين في الغابة.

لكن الـ «في – بي» الخاصة به، أي روحه، كانت ما زالت في بدن القندس، وحاولت الفرار. حمله الهنود إلى قريتهم وبدأوا يعدّون المأدبة. ثم حين باتت النسوة جاهزات لسلخه، صار جسده بارداً، وغادرت روح الجندب البدن، وفرت مبتعدة إلى الغابة، لكن «مان – آ – بوزو» المتيقّظ رآه يتخذ شكلاً بشرياً وبدأ بمطاردته.

حياة الجندب بين القنادس جعلته أكسل من ذي قبل، وراح يبحث عن طريقة أسهل للفرار من الركض الشاق. سرعان ما وصل إلى قطيع من الأيائل ذات القرون الطويلة والأبدان السمينة.

قال الجندب وهو ينظر إليها: «إنها تعيش حياة حرة سعيدة، فلماذا أنهك نفسي بالركض؟ سأحوّل نفسي إلى أيل وأنضمّ إليها».

نبتت قرون من رأسه، وخلال لحظات تحوّل بالكامل إلى أيل. لكنه لم يكن راضياً تماماً.

قال لقائدها: «إنني لست كبيراً بما فيه الكفاية، إن أقدامي أصغر بكثير، وينبغي أن يكون قرناي ضعفي قرنيك. أيمكن أن أفعل شيئاً لكي أجعلهما يكبران؟».

أجاب سيد الأيائل: «أجل، لكنك ستفعل هذا على مسؤوليتك الخاصة».

أخذ الجندب إلى الغابة وأراه ثمار توت كبيرة حمراء معلقة على أغصان خفيضة.

«لا تأكل سوى من هذه الثمار، وسرعان ما سينبت لك قرنان أكبر من قروننا. لكن من الحكمة ألا تتناول منها أكثر من اللزوم».

كانت ثمار التوت شهية. وشعر الجندب بأنه لا يكتفي منها، فراح يأكلها بنهم كلما استطاع العثور عليها. فصارت أقدامه أطول وأثقل بحيث بات بالكاد قادراً على مجاراة القطيع في تنقلاته، أما قرناه فصارا كبيرين إلى حدّ أنهما أحياناً كانا يعيقان طريقه.

وذات يوم بارد ذهب القطيع إلى الغابة بحثاً عن مأوى، وسرعان ما جاء بعض الأيائل ممن كانت في مؤخّر الركب وهي تصيح منذرة. كان الصيادون في إثرها.

هتف زعيم الأيائل بالجندب: «اركض، اتبعنا إلى القفار، حيث لا يستطيع الهنود الإمساك بنا».

حاول الجندب اللحاق بها، لكن أقدامه الثقيلة منعته من مجاراة سرعتها. ثم بينما يمرّ في أيكة علقت قرونه بين الأغصان. وحوصر بسيل من السهام التي اخترق بعضها قلبه، فهوى أرضاً.

جاء الصيادون هاتفين «تا– أو»، إذ رأوا الأيل الضخم «هذا هو الأيل ذو آثار الأقدام الضخمة في القفار. تا – أو!».

بينما يسلخون جلده انضم «مان – آ – بوزو» إليهم وفي تلك اللحظة فرت روح الجندب من فم الأيل الميت، وانتقلت

سريعاً إلى السهول المفتوحة، مثل هبة من الدخان الأبيض التي تدفعها الرياح. وفي حين شاهدها «مان - آ - بوزو» وهي تتلاشى، رأى مجدداً الهيئة الخالدة للجندب، ومرة أخرى تبعه، يتنفّس الانتقام.

بينما هرع الجندب قدماً، خطرت له فكرة جديدة. فوقه في السماء الصافية كانت الطيور تحلق مسرعة. فقال: «هذا هو مكاني، هناك عالياً في السماء. فليكن لي جناحان، وسأهزأ من مان - آ - بوزو».

أمامه كان ثمة بحيرة، اقترب منها فرأى قطيعاً من الأوز البري المعروف باسم البرند، وكان يتغذى بين القصب. قال الجندب، معجباً بها وهي تتنقّل هنا وهناك: «سرعان ما سيطرن شمالاً. وأحب أن أسافر برفقتها».

خاطبها قائلاً: «بيش - ني - كو»، أيها الأشقاء، فوافقوا على ضمه إليهم كواحد منهم. فطاف على ظهره حتى نبت له الريش وأصبح برند، مع منقار كبير أسود وذيل يقوده في الهواء مثلما تدير الدفّة السفينة.

صار الجندب، النهم كعادته، يأكل أكثر من الآخرين، وسرعان ما صار أكبر برند على الإطلاق. بدا منقاره أشبه بالمجذاف، وحين بسط جناحيه كانا كبيرين مثل «الأو - بوك - وا»، أو الحصير. حملقت به الأوز البري مدهوشة. وقالت له: «يجب أن تكون قائدنا وتطير في المقدّمة».

أجابهم الجندب: «لا، أؤثر البقاء في الخلف».

«كما تشاء، لكن عليك بالحذر. يجب أن تبقي رأسك ورقبتك ممدودين إلى الأمام، ولا تنظر إلى الأسفل وإلا تعرضت لحادث ما».

كان منظراً رائعاً رؤيتها ترفرف بأجنحتها، مادّة أعناقها الطويلة، وهي ترتفع كالدوامة من البحيرة، وتمتطي الريح. ثم تطير مع نسيم الجنوب، أسرع فأسرع، حتى بات طيرانها أشبه بالسهام.

ذات يوم، بينما يمر القطيع فوق قرية، سمع بشراً يتصايحون. كانوا مذهولين من حجم الطائر الذي يطير في مؤخر السرب، وقد تناهت صرخاتهم إلى الجندب الذي شعر بالفضول. وقد أحس بصوت واحد بالتحديد مألوفاً، ولم يستطع مقاومة النظر

إلى الأسفل. حين فعل ذلك التقطت ريح قوية ذيله، وراحت تقلّبه في الهواء. حاول عبثاً أن يستعيد توازنه، لكن الريح ظلّت تقلّبه مثلما تقلّب ورقة شجر. بدأ يقترب من اليابسة وصارت صيحات الهنود ترتفع أكثر فأكثر، وأخيراً هوى أرضاً وقد فارق الحياة.

كانت مأدبة رائعة أقامها القوم بهذا الطائر السمين الذي هبط عليهم من السماء. وقد انقضوا عليه وشرعوا بنتف ريشه. كانت تلك قرية الجندب عينها، ولم يكن ليحلم بأنه سيوفر لها يوماً مثل هذه الوليمة؛ وليمة يكون هو الطبق الأساسي فيها.

لكن مجدداً عاودت الفيبي، أي الروح، اتخاذ هيئة الجندب وفرّت من بدن الطائر، ومجدداً صاح «مان – آ – بوزو» صيحته الحربية في أعقابه.

وصل الجندب إلى الصحراء، حيث لا تنبت إلا بضع أشجار قليلة، وحيث لا حيوانات. كان «مان – آ – بوزو» يسعى في أثره، فاضطر إلى القيام بحيلة جديدة. وصل أخيراً إلى شجرة صنوبر سامقة تنمو في الصخر، فتسلقها، وانتزع الوريقات الخضراء وقام بنثرها في المكان تاركاً الأغصان عارية. ثم مضى مبتعداً. حين وصل «مان – آ – بوزو» اشتكت له الشجرة مصابها:

«انظر ما فعل بي الجندب. من دون أوراقـي من المؤكّد أنني سأموت. يا أيها المانيتو العظيـم أناشدك أن تعيد إليّ ثوبي الأخضر».

أشفق «مـان - آ - بـوزو» الـذي يحب جميع الأشجار ويحميها، على شجرة الصنوبر. فجمع الأوراق المنثورة وأعادها إلى الأغصان. ثم انطلق بسرعة فاقت سرعة الجندب، وحين اقترب منه أخيراً مدّ ذراعيه لكي يمسك به. لكن الجندب تنحّى جانباً بسرعة، وراح يدور ويدور على رجل واحدة مؤدياً رقصته المدوّمة، حتى امتلأ الهواء من حوله بالتراب وأوراق الشجر اليابسة. في قلب هذه الدوّامة دخل إلى شجرة مجوّفة وحوّل نفسه إلى ثعبان. ثم زحف عبر الجذور قبل أن يضرب «مان - آ - بوزو» الشجرة ضربة حوّلتها إلى غبار.

استعاد الجندب شكله الآدمي ثانية، وهرع للنجاة بحياته الغالية. لم يبق أمامه سوى الاختباء. لكن أين؟ وصل مجدداً إلى ضفاف البحيرة الكبرى، ورأى أمامه حافة جبال التصاوير[1]. لو أمكنه الصعود إلى قمة هذا الجبل فحسب، فقد يستضيفه مانيتو

(1) Picture Rocks: تقع في ولاية بنسلفانيا بأمريكا، وقد اتخذت اسمها من الرسوم التصويرية، غالباً للحيوانات، التي كان يرسمها السكان الأصليون على جدران الكهوف في هذه الجبال (م).

الجبل الذي يعيش في أحد الكهوف المظلمة. وحين وصل بالفعل وطلب مساعدة المانيتو سمح له الأخير بالدخول.

ما كاد يوصد الباب مصدراً جلبة عالية حتى وصل «مان - آ - بوزو». وضرب الباب بقفازيه ضربة قوية جعلت شظايا الخشب تتطاير منه.

«افتح»، صاح بصوت رهيب.

لكن المانيتو كان شجاعاً ومضيافاً. فقال للجندب:

«لقد آويتك في مسكني، وإنني أؤثر الموت على تسليمك».

انتظر «مان - آ - بوزو»، لكنه لم يتلق الجواب. فقال أخيراً:

«كما تشاء، إذا لم تفتح لي الباب بحلول الليل، فسأطلب من الرعد والبرق أن يحققا لي ذلك».

مرّت الساعات، وهبط الظلام. ثم، من قلب غيمة سوداء تجمّعت فوق البحيرة الكبرى، أطلق «واي - واس - إمو»، البرق ذو العين الحمراء، صواعقه النارية، وصاح «آن - ني - مي - كي»، الرعد، صيحة مدوية من أعماق السماء. فهبّت ريح جبّارة راحت تمايل أمامها الأشجار وتئن، واختبأت الثعالب في جحورها.

قفز البرق من الغيمة السوداء وانقض على الجرف الجبلي، فارتعشت الصخرة وارتجّ الباب ثم تهاوى. خرج مانيتو الجبل من كهفه المظلم، طالباً الرحمة من «مان - آ - بوزو». وقد منحه ذلك، ففرّ المانيتو إلى الهضاب.

ثم ظهر الجندب، وفي غضون لحظة صار مدفوناً تحت صخرة ضخمة أسقطها «آن - ني - مي - كي»، الرعد. هذه المرة قتل وهو في هيئته البشرية، ولم يعد يستطيع القيام بمقالبه المجنونة.

لكن «مان - آ - بوزو»، الرحيم تذكّر أن الجندب لم يكن شريراً بالكامل. فقال:

«إن روحك لا ينبغي أن تبقى على الأرض بأيّ شكل كان. لقد عشت كآدمي حياة متبطّلة حمقاء، ولم يعد مرغوباً بك هنا. لكنني سأسمح لك بأن تسكن السماء».

ما إن انتهى من قول هذا، حتى أخذ شبح الجندب وألبسه ثوب نسر الحرب، وجعله زعيم كل الطيور.

لكن الناس لم ينسوا الجندب الطائش. في أواخر الشتاء يملأ ثلج رقيق كالبودرة الهواء مثل البخار. وهذه تحول بين صياد الطرائد وأفخاخه، وصياد الأسماك عن الفتحة التي أحدثها في الجليد. فجأة يهبّ ريح يحمل هذا الثلج الخفيف، وينفخه في دوامة، وحين يحدث هذا يضحك الهنود قائلين:

«انظروا! ها هو الجندب. أترون مبلغ براعته في الرقص».

الساحر «ميش - أو - شا»

في قلب الغابة الخضراء العظيمة عاش صياد يبعد مسكنه أميالاً عن معاقل قبيلته. كانت زوجته قد توفيت منذ زمن طويل، وعاش مع ابنيه اليافعين اللذين كبرا كأفضل ما يكون من دون رعاية أمهما.

حين يذهب الأب بعيداً في رحلة صيد، لا يبقى برفقة الولدين سوى طيور الغابة وحيواناتها، وقد تصادق الولدان صديقين مع بعض صغار الحيوانات. كان «أد - جي - دامو»، السنجاب، يهرع من شجرة إلى شجرة تاركاً البندق يسقط على سقف البيت. تلك كانت طريقته في الطرق على الباب في الصباح. كان ثرثاراً كبيراً، من دون أن يكون لديه ما يقوله، كما هي الحال مع أولئك الذين لا تعرف أصواتهم الهدوء. لكنه كان ذكياً ومرحاً، يثرثر بابتهاج عن لاشيء محدد، ولم يكن ثمة فرق ما إذا كنت تصغي إليه أم لا.

أما «وا - بو - سي»، الأرنب الوحشي الأبيض الصغير فكان صديقاً آخر. ذات يوم شتوي حين كان القوت شحيحاً في الغابة، كان السنور البري، «أو - ني - أوتا» على وشك الانقضاض عليه، حين رماه والد الصبيين

بسهم، فلم يعد السنّور مهتماً بأمر الأرنب الوحشي.

شعر «وا - بو - سي» بالامتنان، وصار يحاول أحياناً إظهار امتنانه هذا بطريقته الخجولة.

كان الأب وولداه يعيشان غالباً على الطرائد الكبيرة مثل الدب والغزال. وكان اللحم يقطّع إلى شرائح ويحفظ: أحياناً كان يجب أن يعيشوا عليه أياماً كثيرة، حين يكون الصيد شحيحاً، أو حين تجف الغابة عطشاً للمطر، فتتكسر الأماليد تحت قدمي الصياد، وتنذر الحيوانات باقترابه. وإذن، اعتاد الصبيان أن يبقيا وحدهما لأسابيع أحياناً، حين يكون أبوهما غائباً.

ثم جاء موسم المجاعة، فلم يعد التوت ينمو، واعترى العشب الجفاف، ولم يبق سوى القليل من الجوز على البلّوط. وحتى المياه جفّت في بعض الغدران. حين رأى سيغوان، الصبي الأكبر سناً، أنه لم يبق سوى القليل من اللحم، قال لأخيه أوسكودا:

«فلنأخذ ما تبقّى من اللحم، ونمضي في الغابة نحو الشمال. أذكر قول أبي أنه على بعد بضعة أقمار هنالك بحيرة عظيمة تسمى غيتشي غومي، تعجّ مياهها بالأسماك.

سأله أوسكودا متشككاً: «لكن أيمكننا إيجاد الطريق؟».

فخاطبهما صوت من الأعلى: «لا تجزعا!».

كان هذا السنجاب «أد - جي - دومو»، المرح كعادته وإن أصابه بعض الهزال بسبب شحّ الجوز.

مضى قائلاً: «سارافقكما». وكذلك وا - بو - سي، الأرنب الأبيض الذي يمكنه الركض أمامنا وإيجاد الأثر، وأنا أستطيع القفز من شجرة إلى شجرة ومراقبة الطريق، لا أخفيكما سراً أننا مضطران إلى الذهاب».

كانت فكرة جيدة، وقاد «وا - بو - سي» الطريق. حيث الـدرب محتشد بالعشب، كان يتشمّم الأرض بأنفه الطويل فيتعرف الدرب من دون أن يضلّ مرة واحدة؛ وحيث الأثر واضح بيّن كان يهرع قدماً ويقعد على قائمتيه الأماميتين وينتظر الصبيين، وقد أخذت أذناه الطويلتان ترتعشان، رصداً لأقلّ خطر محتمل.

لكن لم يحدث ما يثير القلق. فالسنّور البري والذئب والنمر فرت جميعاً قبل المجاعة، وكانت الغابة خالية من الحيوانات الضارية. مضت قدماً، حتى شعرت أن ليس من نهاية لهذه الغابة. ثم ذات يوم تسلّق «أد - جي - دومو» شجرة سنديان سامقة تمكن الرؤية من خلالها بعيداً في الغابة. كانت الشمس تشع وضّاءة وهو يحدّق ناحية الشمال، حيث رأى شيئاً يلمع كالفضة في الأفق. كانت هذه غيتشي غومي، البحيرة العظمى.

بلغت الحيوانات مكاناً فيه وفرة من الجوز للسنجاب، والكثير من الخضرة الكفيلة بجعل الأرنب الأبيض سميناً. فودّعا الصبيين اللذين باتا قادرين على متابعة طريقهما دونما عناء. لم يمض وقت طويل حتى وصلا إلى أطراف الغابة. سمعا صفير «توي - تويش - كي - واي»، طائر الزقزاق، وما هو إلا بعض الوقت حتى وجدا نفسيهما أمام البحيرة التي يترقرق الضوء لمّاعاً على سطحها.

قطع سيغوين بسكينه الحادة غصناً من شجرة دردار وصنع قوساً، ومن غصن بلوط صنع بعض السهام التي روّس رؤوسها بحجر الصوّان. وجد ريشاً ساقطة من جناح نورس فاستعملها للسهام، وقد صنع من قطعة من ثوبه المصنوع من جلد الظبي وتر

القوس. ثم أعطى القوس والنشّاب لأوسكودا لكي يتمرّن بها، وقام بجمع بعض البذور من الزهرة البرية، لكي يسكت جوعهما.

وقع سهم أساء أخوه تصويبه في البحيرة، وغطس سيغوان لكي يستعيده. خاض في الماء حتى وصل إلى خاصرته، ومدّ يده لكي يلتقط السهم، وفجأة، كأنما بسحر ساحر، اقترب منه قارب مسرع كالطائر. وعلى متنه شيخ دميم مدّ يديه وأمسك بالصبي ورفعه إلى القارب.

رجاه سيغوان قائلاً: «إذا كنت تريد أن تأخذني معك فخذ أخي أيضاً! فإذا ما بقي وحيداً هنا فسيموت جوعاً».

لكن «ميش - أو - شا»، الساحر، اكتفى بالضحك. ثم ضرب جانب القارب بيده وقال الكلمة السحرية «شيمون بول» التي تردّد صداها في البحيرة كشيء حيّ، ثم اختفت ضفة البحيرة سريعاً. ثم توقف المركب على ضفة رملية وقفز «ميش - أو - شا»، منه وأشار على الصبي للحاقه.

لقد حطّا على جزيرة. أمامهما، بين أشجار السدر، كانت ثمة خيمتان، ومن الأصغر خرجت فتاتان حسناوان، ووقفتا تنظران إليهما.

بالنسبة إلى سيغوان الذي لم يرّ فتاة في حياته قطّ، كانت هذان الفتاتان أشبه بروحين من السماء. حدّق بهما متعجّباً وكأنه يتوقع أن تختفيا فجأة. أما هما فنظرتا إليه دونما ابتسام، وكان العطف والحزن جلياً في عيونهما.

قال الشيخ لسيغوان وقد فتر فمه عن ضحكة أظهرت أنيابه الطويلة الصفراء: «إنهما ابنتاي!»، ثم التفت إلى الفتاتين وقال: «ألستما مسرورتين بعودتي سالماً؟ ألستما مسرورتين بصديقي الوسيم هذا؟».

أومأتا برأسيهما تهذيباً، لكنهما لم تقولا شيئاً.

مضى قائلاً: «منذ زمن طويل لم يزرنا أحد»، ثم همس للبنت الكبرى: «قد يكون هذا الشاب زوجاً رائعاً لك».

تمتمت الفتاة شيئاً ما، فنظر إليها «ميش - أو - شا»، شزراً.

«سنرى! سنرى»، تمتم في سره، ضاحكاً مثل غراب العقعق، وهو يفرك يديه.

قرر سيغوان المهموم الحائر أن يبقى متيقظاً. ولحسن الحظ كان «ميش - أو - شا»، يغفل أحياناً وهو يمشي في المقدمة. ثم

دخل إلى الخيمة وتركهم وراءه، وعندئذ اقتربت البنت الأكبر من سيغوان وكلمته سريعاً، قائلة:

«نحن لسنا ابنتيه، لقد خطفنا وجاء بنا إلى هنا مثلك تماماً. وعند شروق كل قمر يمسك بشاب جديد ويزعم أنه أحضره إلى هنا لكي يزوجني منه. لكنه سرعان ما يأخذه مجدداً بقاربه ولا يعيده ثانية. نشعر أنه يتخلص منهم جميعاً».

سألها سيغوان: «ماذا يجدر بي أن أفعل؟ أنا لا يهمني أمر نفسي بل أمر أخي الصغير الذي بقي وحيداً على ضفة البحيرة وقد يموت جوعاً».

قالت الفتاة: «آه، أنت حقاً لطيف وغير أناني، ولذلك سنساعدك مهما كلّف الأمر. إن كو - كو - كو - هو، يراقبنا طوال الليل من مكانه هناك على غصن شجرة السدر العاري هناك. انتظر حتى يغفو الساحر وتدثّر ببطانية من رأسك إلى أخمص قدميك وتسلل إلى الخارج خلسة، واهمس اسمي ني - ني - موشا، وسوف آتي وأخبرك ماذا تفعل».

«ني - ني - موشا»، تمتم الشاب، «يا له من اسم جميل!». ثم قبل أن يتسع له المجال لشكرها كانت قد ذهبت مع أختها.

ثم ظهر الساحر وأومأ لسيغوان بأن يتبعه. بدا الشيخ حسن المزاج، وأمضى الوقت سارداً القصص، لكن سيغوان لم يخدع بزعمه الودّ والصداقة. حين غفا الساحر بعمق نهض ولفّ نفسه ببطانية ومشى بحذر إلى باب المسكن الصغير.

قال همساً: «ني - ني - موشا»، وأخذت نبضات قلبه تتسارع، ذلك أن هذه الكلمة تعني بالهندية «حبيبتي».

«سيغوان!»، أجابته، فخرج اسمه الذي يعني «الربيع» كالموسيقى من ثغرها.

أزاحت الستارة وخرجت.

قالت له: «هاك، هذا الطعام سيكفي أخاك أياماً عدة. اصعد إلى قارب ميش - أو - شا، وقل الكلمة السحرية، وسيأخذك إلى حيث تشاء. يمكنك العودة قبل الفجر».

سألها سيغوان: «لكن ألن يصيح البوم».

«امشِ محنياً قامتك مثلما يفعل ميش - أو - شا، وحين يراك البوم سيصرخ: هوت، هوت، وعليك أن تجيبه هوت هوت، ووا ميش - أو - شا، وعندئذ سيدعك تمرّ».

فعل سيغوان ما أشارت به الفتاة، وسرعان ما وجد نفسه مبحراً في البحيرة. حين وصل إلى البرّ بدأ يصدر صوتاً شبيهاً بصوت السنجاب، وعند سماعه هذه الإشارة الأليفة هرع أخوه ماداً ذراعيه نحوه. أنشأ سيغوان كوخاً للفتى، وقال له إنه سيعود له. ثم عاد إلى القارب، وسرعان ما بات غافياً في كوخ الساحر.

لم يشكّ «ميش – أو – شا» الذي كان يثق بالبوم، بشيء. فأنى له أن يعرف ما يمكن أن يفعله عاشقان إذا ما اتفقا معاً؟

سأل سيغوان: «أنمت جيداً يا بني؟ الآن سنذهب في رحلة رائعة معاً. سنذهب إلى جزيرة تضع فيها آلاف النوارس بيوضها في الرمل وعلينا أن نأخذ منها قدر ما نستطيع».

متذكراً ما قالته له «نيني – مو – شا»، ارتعش سيغوان. لكنها طبعت على باطن كفها قبلة أرسلتها له وهي تلوّح مودّعة، وهذا أدخل الطمأنينة إلى قلبه.

بينما مضى القارب مبتعداً، تأكّد من أن خنجر الصيد الخاص به في غمده، ولم ينزع عينيه عن الساحر ولو للحظة واحدة.

حين وصلا إلى الجزيرة ارتفعت النوارس بأعداد كبيرة، وحلقت زاعقة فوق رأسيهما.

قال له الساحر: «أنـت اجمع البيوض، في حين أحرس القارب».

سارع سيغوان إلى الضفة، سعيداً بتخلصه من الشيخ. ثم صاح الساحر للنوارس:

«هوو! يا صديقتي ذات الريش! هذه هي الأضحية البشرية التي وعدتك بها حين وافقت على جعلي سيدك. اهبطي يا عزيزتي! اهبطي وافترسيه!».

ثم ضرب على جانب القارب ومضى، تاركاً الشاب تحت رحمة النوارس.

بصرخات حادة قاسية هبطت النوارس مسرعة لتنقض على سيغوان. لم يسمع في حياته مثل تلك الجلبة. عشرة آلاف جناح تخفق في الهواء، وترفرف هادرة كالرعد. اقتربت النوارس منه كغيمة راعدة. لكن سيغوان لم يجزع. بل صاح صيحة «سو - سو - كوان»، أو صيحة الحرب، وأمسك بالطائر الأول من رقبته ورفعه عالياً بيده اليسرى، وبيده

اليمنى استلّ خنجره الذي التمع نصله في الشمس.

ثم صاح: «توقفي! توقفي أيتها الطيور المسكينة! احذرى غضب الروح العظمى».

اوقفت الطيور هجومها، لكنها ظلّت محتشدة فوقه، مادة مناقيرها الحادة.

تابع كلامه: «اسمعيني أيها النوارس! لقد منحك الروح العظمى حياة لكي تخدمي بها البشر. فإذا ما قتلتني فإنك تقتلين كائناً خلق ليحكم جميع الطيور والحيوانات. إنني أحذرك من عواقب ذلك!».

صاحت النوارس: «لكن ميش - أو - شا الجبار قد أمرنا بقتلك».

أجاب سيغوان: «إن ميش - أو - شا، ليس.بمانيتو، إنه مجرد ساحر شرير يستغلك من أجل غاياته الشريرة. فلتحملنني على أجنحتك إلى جزيرته، ذلك أنه هو من ينبغي قتله».

اقتنعت النوارس بأن ميش - أو - شا، قد خدعها، واقتربت من بعضها بعضاً، حتى تمكّن الشاب من اعتلاء ظهورها.

وارتفعت في الريح وحملته فوق المياه، ثم أنزلته امام مسكن الساحر.

فرحت «نيني – مو – شا»، بمقدمه، واستقبلته قائلة: «لم أكن مخطئة بشأنك، من الواضح أن الروح العظمى يحميك. لكن ميش – أو – شا، سيحاول ثانية، فكن حذراً».

وصل الساحر على متن قاربه المسحور. وحين رأى سيغوان اصطنع رسم ابتسامة على وجهه. لكن بما أنه لم يعتد الأفكار لطيفة، فلم تكن ابتسامته سوى تكشيرة تشبه القرقول[1]، الذي كان مترقّباً هجوم الضبع عليه، له أبشع ابتسامة ممكنة.

تمكّن من أن يقول أخيراً: «حسن يا بني، لا تسئ فهمي. لقد فعلت ذلك لكي أختبر شجاعتك، والآن من المؤكد أن نيني – مو – شا، ستحبّك. آه يا بني، ستكونان زوجين سعيدين!».

تنحّت «نيني – مو – شا» جانباً، لكي تخفي اشمئزازها، بيد أن سيغوان زعم أنه يصدق الشيخ الشرير.

---

(1) Gargoyle: تماثيل على هيئة بشر أو حيوانات شاعت في القرون الوسطى في أوروبا وكان المقصود بها أن تكون دميمة لإخافة الأرواح الشريرة وإبعادها عن المباني التي تقع هذه التماثيل في أعلاها. لا نعرف إذا كان القرقول موجوداً في ميراث الهنود الحمر حقاً، وقد يكون استبدال من جامع الحكايات لكائن خرافي آخر (م).

قال الساحر: «ومع ذلك، فإنني مدين لك بشيء جراء ما جرى. أرى أنك لا تضع أي حلى. تعال معي إلى جزيرة الأصداف المتلألئة وسرعان ما ستكون مرتدياً أزياء المحاربين الوسيمين».

كانت الجزيرة التي حطا فيها رائعة بالفعل، وكانت مغطّاة بالأصداف الملونة التي تلمع في شعاع الشمس كالمجوهرات.

«قال ميش - أو - موشا»، وهما يمشيان على الضفة: «انظر! هناك ثمة درب صغير. أتراه يلمع في الأعماق».

خاض سيغوان في الماء، وحين بلغت فخذيه، قفز الساحر إلى القارب وانطلق خارجاً إلى البحيرة. ثم جعل ينادي: «تعال يا ملك الأسماك، لطالما كنت خادماً أميناً لي. وهذه مكافأتك».

ثم ضرب على قاربه واختفى من المكان.

فوراً برزت إلى سطح الماء سمكة ضخمة ذات فك واسع مفتوح. لكن سيغوان اكتفى بالابتسام، قائلاً وهو يستلّ خنجره الطويل: «اعلم أيها الوحش أنني سيغوان، وقد سميت على اسم ذاك الذي يدفئ المياه الجليدية ويكسي الهضاب بالخضرة. إن هذا الجبان ميش - أو - شا، خوفاً من غضب الروح العظمى، يسعى

إلى جعلك تفعل ما لا يجرؤ هو على فعله. إذا ما سفكت نقطة واحدة من دمي، فستصبغ مياه البحيرة، وستفنى قبيلتك كلها».

قال ملك الأسماك: «لقد خدعني ميش - أو - شا، لقد وعدني بصبية رقيقة، وإذا به يجلب شاباً له عينا محارب. كيف لي أن أساعدك يا سيدي؟».

هتف سيغوان: «ذلك الحقير! فلتفرح لأنه لم يف بوعده المخيف. أنت تستحق الموت على يدي لكنني سأمنحك فرصة التوبة. احملني على ظهرك إلى جزيرة ميش - أو - شا، وسأدعك تحتفظ حياتك».

عاجل ملك الأسماك إلى حمل سيغوان على ظهره العريض ومضى مسرعاً حتى وصل إلى الجزيرة بعيد وصول «ميش - أو - شا» بقليل. كان الساحر يشرح لـ «نين - إ - موشا»، كيف أن الشاب وقع عن القارب إلى فكي سمكة كبيرة، حين وصل سيغوان نفسه آتياً من البحيرة وكأنه يعود من نزهة يومية. ورغم ذلك سعى «ميش - أو - شا»، إلى تبرير فعلته، قائلاً: «يا ابنتي، كنت أحاول أن أكتشف فحسب مدى اهتمامك بأمره».

لكنه في الأثناء حدّث نفسه بأنه لن يخفق في المرة القادمة.

وكانت المرة القادمة في اليوم التالي. حيث قال لسيغوان: «إن بومي صار هرماً، ولن يعيش طويلاً، أرغب في صيد نسر يافع، وترويضه. أتساعدني؟».

قبل سيغوان ومضى معه بقاربه السحري إلى بقعة صخرية من الأرض تمتد من البحيرة. هناك على فرع شجرة صنوبر طويلة كان ثمة عش نسر، فيه بعض صغار النسور غير القادرة بعد على الطيران.

هتف الساحر: «بسرعة، تسلق الشجرة قبل عودة الطائر الهرم».

كان قد شارف سيغوان على بلوغ العش حين خاطب الساحر الشجرة، آمراً إياها بأن تزداد طولاً. وسرعان ما بدأت بالارتفاع حتى صارت مرتفعة إلى حدّ أنها بدأت تتأرجح في الريح، فشعر سيغوان أن النزول ثانية يتطلب منه استجماع كلّ شجاعته. في الوقت نفسه أطلق الساحر الصرخة الغريبة، التي عاد على وقعها الأم والأب من الغيوم لكي يحميا أطفالهما.

قال الساحر ضاحكاً: «هوو، هوو! هذه المرة لم أرتكب أيّ خطأ. إما ستقع وتكسر رقبتك، وإما سيقتلع النسران عينيك».

ثم ضرب قاربه، واختفى في الضباب.

بدأ النسران يطوفان حول سيغوان، الذي استقرّ على غصن وخاطبهما قائلاً: «يا أخويّ، أترياني ريشة النسر في شعري! إنها دليل إعجابي بشجاعة جنسكما ومهارته. لكن حين تنظران إليّ فإنكما تنظران إلى سيدكما؛ ذلك إنني بشر، ولستما إلا من الطيور. أطيعاني، واحملاني إلى جزيرة ميش - أو - شا».

هذا الإطراء أعجب النسرين اللذين احترما شجاعة الشاب ورباطة جأشه. ممتطياً ظهر الطائر الذكر شق سيغوان الهواء ليحطّ أخيراً على الجزيرة المسحورة.

بات «ميش - أو - شا» واثقاً عندئذ أنه لا الطير ولا الوحوش الجارية يمكنها أن تلحق الأذى بالشاب الوسيم، الذي بدا أنه محاط بحماية مانيتو قوي. فقرر أن عليه اعتماد طريقة أخرى. فقال لسيغوان: «هناك اختبار آخر فقط، وبعدها يمكنك اتخاذ نين - إ - موشا، زوجة لك. لكن أولاً عليك أن تبرهن عن مهارتك كصياد. تعال!».

بنيا كوخ صيد في الغابة وتسبب الساحر بنشوء عاصفة ثلجية مصحوبة برياح قارسة من الشمال، مثل لسع السهام. تلك الليلة،

وقبل أن يأوي سيغوان إلى النوم، علّق خفّيه وطماقيه قرب النار لكي تجفّ؛ وحين سبقه «ميش - أو - شا» بالاستيقاظ فجراً أخذ فردة من كل زوج ورماها في النار. ثم فرك يديه وضحك كذئب البراري.

سأله سيغوان، وهو ينهض من النوم: «ما الأمر؟».

قال «ميش - أو - شا»: «للأسف يا بني! لقد تأخرت. هذا موسم القمر حين تلتقط النيران كل شيء. وقد جرّت إليها أحد فردتي خفيك وطماقك. يا للأسف، كان عليّ أن أنذرك».

أمسك سيغوان عن الكلام رغم أن الأمر كان واضحاً جلياً له. كان مقصد «ميش - أو - شا»، أن يجعله يبرد حتى الموت. لكن سيغوان الذي صلّى للمانيتو الذي يحميه لكي يساعده، أخذ من الموقد حطبة متفحمة سوّد بها رجله وقدمه، متمتماً تعويذة في الوقت عينه. ثم وضع الفردتين الباقيتين على الرجل الثانية، وبات مستعداً للصيد.

شقا طريقهما عبر الثلج والجليد، وعبر أجمات من الشوك، وفوق مستنقعات نصف متجلّدة، حيث غرق سيغوان إلى ركبتيه، لكن صلواته استجيبت؛ ونجح السحر، ومشى الشاب

من دون أن يطاوله البلل. وبسهمه الأول قتل دباً.

ثم قال، ناظراً إلى الساحر مباشرة في عينيه: «أرى أنك تعاني من البرد. فلنعد إلى جزيرتك».

أمام نظرات سيغوان الجريئة، أحنى «ميش - أو - شا» رأسه، وتمتم جواباً غبياً ما. أدرك أخيراً أنه لاقى من يضاهيه.

أمره سيغوان: «احمل الدب على كتفيك».

مجدداً أطاع الساحر الأمر. وللمرة الأولى عادا معاً إلى الجزيرة حيث ذهلت الفتاتان إذ رأتا «ميش - أو - شا» المغرور يرزح تحت ثقل الدب، وهو يئن من غضبه العاجز.

قالت نين - إ - موشا، حين أخبرها سيغوان بما جرى: «لقد كسرت قوته، بيد أننا لن ننعم بالأمان قطّ قبل أن نتخلّص نهائياً منه. ما أفضل ما نستطيع فعله؟».

فكّرا معاً، وخرجا بخطة جعلت نين - إ - موشا، تضحك قائلة: «إنه يستحق عقاباً عظيماً، لن يكون العالم آمناً ما دام حياً. لكن ما خطّطنا لفعله سينتقم لنا، من دون سفك نقطة دم واحدة».

في اليوم التالي قال سيغوان للساحر: «آن أوان أن ننقذ أخي الذي تركناه طوال هذا الوقت على الضفة. تعال معي».

لوى «ميش – أو – شا» وجهه امتعاضاً، لكنه استعدّ للذهاب. سرعان ما لمحا الصبي الذي صعد بسعادة إلى القارب. ثم قال سيغوان للشيخ: «أشجار الصفصاف تلك على الضفة تصنع تبغاً جيداً. أيمكنك أن تتسلق إحداها وتحضر بعضه لي».

أجـاب: «بالتأكيد يا بني، بالتأكيد»، وسار مسرعاً إلى الشجرة، «لست ضعيفاً لا أنفع لشيء كما تحسبني».

ضرب سيغوان القارب بيده ناطقاً التعويذة السحرية، «شيمون بول»، وانطلقَ القارب بالأخوين، تاركين الساحر في أعلى الشجرة يتلمّظ غيظاً.

هرعت الفتاتان للقائهما على الضفة. وفرحت «نين – إ – موشا»، بأنه ترك الساحر الهرم وراءه، فيما لم تستطع أختها رفع نظرها عن الشاب الجذاب الذي يشبه كثيراً أخيه.

قالت «نين – إ – موشا»: «لكن الساحر يمكنه أن يأمر الزورق بالعودة إليه، ما لم نجد طريقة لكسر السحر، على أحدنا أن يبقى متيقظاً مراقباً للقارب».

رجاه أوسكودا أن يسمح له القيام بهذه المهمة؛ فتركوه مع حلول الليل، جالساً على الرمل، يحرس القارب.

كانت مهمة مضنية لصبي صغير قد بلغ منه التعب كل مبلغ من الانتظار الطويل. ولكي يسلي نفسه بدأ يعدّ النجوم. أولاً عدّ نجوم الدب الأكبر ثم الدب الأصغر، ثم تلك التي بدت كرسياً عالي الظهر، والنجوم الثلاث الكبيرة في حزام أوريون. لم يكن يعرفها بهذه الأسماء، فقد منحت لها بعد ذلك بزمن طويل، لكنه تعرف على المجموعة المسماة «أو - جيغ - آن - نونغ»، الدلق، الذي جاء بالصيف من السماء لأن ولده كان يشعر بالبرد.

شعر أوسكودا بالبرد أيضاً وهو جالس هناك على الرمل المبلل. لكن الفتيان الهنود لا يعرفون التذمّر. لكنه حين رأى نجوم الدلق فكر في أبيه العزيز، وتساءل أين عساه يكون. لو كان أوسكودا فتى أبيض، لا أحمر، فلعلّ الرمل الذي جلس عليه قد يصبح أكثر بللاً بسبب دموعه. كما هي الحال وجد نفسه ينظر إلى السماء عبر ما يشبه الضباب. ما كان هذا؟ فرك عينيه، وأضاع العدّ، وبدأ من جديد.

أسوأ ما في الأمر أن الهنود لا يجيدون العدّ إلا بإبهامهم إلا إذا احتسبنا أصابع أقدامهم، وأصابع أوسكودا كانت محشورة في حذائه فلا يمكنه الاستعانة بهما. كم إبهاماً عدّ، وكم نجمة؟

الضباب أو أياً يكن، ملأ عينيه. لاب، لاب! كان صوت الأمواج الصغيرة التي تهز القارب كمهد. سوو، سووا تنهّدت الريح بين السدر. كل شيء آخر كان ساكناً صامتاً، وحتى النجوم أخذت ترمش وتغمز، كأنها تعبت من النظر إلى العالم.

وأغفا أوسكودا.

«هوو، هووا» اخترقت صرخة البوم «كو - كو - كو - هو» أذنيه. كان ذلك لبرهة فقط. ارتفعت الظلال. ونبح سنجاب. ثم أطلق ريح الجنوب، الذي ارتفع فوق حافة المياه، سهامه الفضية. فكان النهار.

جلس أوسكودا نصف مستو على الرمل، ونظر إلى البحيرة. أكان ما زال في المكان نفسه الذي كان فيه ينتظر أخيه قبلاً؟ ثم تذكّر كل شيء، وأجفل فجأة. كان القارب قد اختفى!

لكن سرعان ما عاد القارب ثانية. وكان يقترب مباشرة منه وعلى متنه «ميش - أو - شا».

قال له الساحر والقارب يقف على الرمل: «صباح الخير يا ولدي! أأنت سعيد برؤية جدّك من جديد؟».

ضمّ أوسكودا قبضتيه الصغيرتين. كان شجاعاً جداً، وكان غاضباً جداً. قال له: «أنت لست جدي، ولست مسروراً برؤيتك ثانية».

قال الشيخ: «إيسا، إيسا (يا للعار، يا للعار!)، لكن سيغوان سيسرّ برؤيتي، وكذلك ابنتاي الحبيبتان. أرجو الا تكونا قد قلقتا عليّ».

كان سعيداً بذكائه وتغلبه عليهم جميعاً، وقد عادت إليه صفاقته السابقة. لكن سيغوان قد هزمه من قبل. ففكّر في خطة أخرى.

قال: «يا جداه، يبدو أن علينا أن نستمر بالعيش هنا معاً. فلنخزن بعض اللحم للشتاء. تعال معي إلى البرّ. أنا متأكد من أنك صياد عظيم».

كان غرور «ميش - أو - شا»، نقطة ضعفه الوحيدة.

أجاب مزهواً: «ياه! أستطيع الجري طوال اليوم حاملاً غزالاً ميتاً على ظهري. لقد فعلت ذلك قبلاً».

قال سيغوان: «هذا حسن! الريح ستمضي شمالاً ثانية، وسنحتاج إلى كلّ قوتنا في المسير».

الآن كان سيغوان قد علم بأهم أسرار الساحر بطريقة ما، وكان التالي: كانت قدماه ورجلاه الجزء الوحيد في جسمه الذي يمكن إلحاق الأذية به. لا سهم يمكنه اختراق قلبه، والهراوة التي تنهال على رأسه تتشظى أشلاء. ولن يشعر بشيء وكأنك ضربته بقشة. آه! ليس بسبب الروماتيزم كان يحكم شدّ رباط طماقيه. ولماذا يجلس دائماً فوق قدميه؟ ها! بكلّ تأكيد. وجد سيغوان الجواب.

أنشآ كوخاً صلباً في الغابة تماماً مثلما فعلا من قبل. ومجدداً جاء البرد القارس، إلا أن هذه المرة كان سيغوان هو من أنشأ العاصفة. لم يكن قادراً على كتم ضحكته. ثم كانت النار المشتعلة، وعلى الفراش نام «ميش – أو – شا»، نوماً عميقاً.

نهض سيغوان بخفة، وأخذ خفي وطماقي الساحر ورماها في النار.

ناداه: «انهض يا جدي، إنه الموسم عندما النار تلتقط كلّ شيء، وأخشى أنك فقدت شيئاً ربما تحتاج إليه».

حين رأى «ميش – أو – شا» ما حدث بدا مذعوراً إلى درجة أن سيغوان كادت تأخذه به الشفقة. لكن حين تذكّر «نين – إ – موشا»

وأخاه الصغير لم يستطع إيجاد طريقة أخرى. قال: «علينا الذهاب».

انطلقا على الثلج. يا إلهي، يا للبرد الشديد! بدأ «ميش – أو – شا»، بالركض، ظناً منه أن هذا قد يساعده؛ بينما تبعه سيغوان، خشية من أنه إذا تقدّم الدرب فإن الساحر قد يرميه بسهم من الخلف. بعد العدو ساعة، بات الساحر مقطوع النفس، وقد أصبحت قدماه ورجلاه متجلدة متخدرة.

وصلا إلى طرف الغابة، ومنها إلى ضفة البحيرة. هنا توقّف «ميش – أو – شا». حين حاول القيام بخطوة أخرى لم يستطع رفع قدمه. كم باتتا ثقيلتين! حاول ثانية؛ لكن شيئاً غريباً حدث. فقد انغرزت أصابع قدميه في الرمل واتخذت شكل الجذور. أما الريش على شعره، ثم شعره نفسه، فتغيّر تدريجاً إلى أوراق شجر. وأصبح ذراعاه الممدودان غصنين يهتزان في الريح، واكتسى جلده باللحاء.

نظر سيغوان متعجباً. إن من كان يدعى «ميش – أو – شا»، لم يعد بشرياً، بل شجرة، شجرة جميز مائلة فوق البحيرة.

أخيراً التقى الساحر الشيخ الشرير سيده. وما عاد بإمكانه إلقاء تعويذته الشريرة على الشبان البريئين. تمهّل سيغوان لبرهة

لكي يتأكد من أن «ميش – أو – شا»، لن يعود إلى الحياة ثانية. ثم شق طريقه عبر الماء حيث كان الآخرون ينتظرونه بشوق ليخبرهم الأخبار الطيبة.

قال سيغوان: «ميش – أو – شا، لم يعد موجوداً، لن تمكنه أذيتنا ثانية. فلنغادر هذا المكان الذي عانينا فيه كثيراً ونجعل منزلنا على البرّ».

مضوا معاً، حبيبته وأختها والفتى، يتقدّمهم سيغوان. وقد قادهم الطريق الذي سلكوه إلى غابة عظيمة ومجدداً إلى الكوخ الذي تركوه. وهناك عاشوا بسعادة إلى آخر أيامهم.

عروس الجن

كان يا ما كان صبية جميلة اسمها «نين - إ - زو»، كانت الابنة الوحيدة لزعيم هندي يعيش على ضفاف بحيرة «سوبيريور»[1]؛ واسم «نين - إ - زو» بالهندية يعني «حياتي الغالية». كان واضحاً أن والديها يحبانها حباً جماً، ويحرصان على فعل كلّ ما في وسعهما لكي يؤمنا لها حياة سعيدة ويحميانها من كلّ أذى.

كان ثمة أمر واحد فحسب يقضّ مضجعهما. كانت «نين - إ - زو» محبوبة من جميع صبايا القرية، وكانت تلعب معهن. بيد أنها كانت تفضّل أكثر السير وحدها في الغابة، أو تتبع أثراً باهتاً يقود إلى قلب الهضاب الصغيرة. وأحياناً كانت تغيب ساعات طويلة، وحين تعود تبدو عيناها كشخص مكث في أمكنة سرية ورأى أشياء غريبة غامضة. في أيامنا هذه قد يسمون شخصاً مثل «نين - إ - زو» بالرومانسي.

---

(1) Lake Superior: كبرى البحيرات في أمريكا الشمالية وكبرى البحيرات العذبة في العالم (م).

وغيرهم ممن لا يرون أبعد من أنوفهم قد يضحكون، بطريقة متعالية نوعاً ما ويقولون إنها «حالمة».

ما هذا الذي كانت «نين - إ - زو» تراه وتسمعه خلال نزهاتها الطويلة في تلك الأمكنة السرية بين الهضاب؟ أكانت الجنيات؟ لم تكن تقول. لكن أمها التي كانت تتمنى لها أن تكون كسائر الفتيات، وأن تراها متزوجة مستقرة، كانت مسكونة بالقلق والهمّ.

كان يعتقد أن الجن الصغار المعروفين باسم «بوك - واجيز» يسكنون الكثبان الرملية التي تذهب «نين - إ - زو» إليها غالباً في نزهاتها. كانت تلك الكثبان التي شكّلها الجندب حين رقص بجنون في زفاف «مان - آ - بوزو». كان الجنّ يحبون هذه الهضاب، التي نادراً ما يقصدها الهنود. فهي مجرد مكان مهجور: في غروب أيام الصيف يقال إنهم يحتشدون هناك في مجموعات صغيرة، ويلعبون شتى أنواع المقالب. ثم، حين يحلّ الليل، يسارعون إلى الاختباء في أيكة من أشجار الصنوبر تعرف باسم «مانيتو واك»، أو غابة الأرواح.

لم يقترب أحد قطّ منهم؛ لكنّ بعض صيادي الأسماك وهم يجذفون بقواربهم في البحيرة، قد لمحوهم من بعيد، وقد سمعوا

أصواتاً صغيرة لهؤلاء الرجال الصغار المرحين، وهم يتضاحكون منادين على بعضهم. وحين يحاول الصيادون اللحاق بهم يختفي الجن بين الأشجار، لكن آثار أقدامهم الشبيهة بأقدام الأطفال، يمكن رؤيتها في الرمل الرطب في بركة صغيرة بين الهضاب.

إذا كان ثمة حاجة إلى شيء آخر لكي يصدّق أولئك الذين لا يؤمنون بالجن، فإن الدليل كان يأتي من صيادي الأسماك والطرائد الذين كانوا يقعون ضحايا لحيلهم. ولكن الجنّ لم يلحقوا الأذى بأحد حقاً، لكنهم كانوا يقومون بالكثير من الأمور الطائشة. أحياناً حين يرفع صياد قبعته في الصباح يجد الريش مقتلعاً منها، وأحياناً يجد صياد سمك أن مجذافه قد اختفى، ليجده أخيراً على شجرة ما. حين تحدث أمور كهذه يكون واضحاً بغير لبس أن «البوك وادجيز» يمارسون مقالبهم، وقلة يظلون أغبياء فيحسبون الفاعلين سواهم.

كان لدى «نين - إ - زو» أفكارها الخاصة حول هؤلاء الرجال الصغار؛ لأنها مثل نجمة الصبح، لطالما استمعت إلى قصص الشيخ لاغو، وإحدى هذه القصص كانت قصة «الأرض السعيدة»، وهي مكان بعيد لا يبارحه الصيف؛ وحيث لا أحد يبكي أو يعرف الحزن.

لهذه الأرض كانت تتوق. كانت تملأ أفكارها نهاراً، حين تسعى إلى الأمكنة السرية بين الهضاب، وتتخذ بقعة منعزلة، مصغية إلى الأصوات الغامضة التي تهمس في الهواء. أين هي هذه الأرض السعيدة - الأرض التي بلا ألم ولا همّ؟

منهكة ليلاً كانت تأوي إلى فراشها. ثم من أماكنهم الخاصة ينسلّ رسل «وينز» الصغار، روح النوم. أولئك الأقزام - الأصغر من أن تراهم عين البشر المجردة - كانوا يزحفون بسرعة على وجه «نين - إ - زو» المتعبة ويربتون برقة على جبينها بهراواتهم الصغيرة التي تسمى «باب - غا - ماو - غانز». طق، طق، طق!، حتى تغمض جفنيها، وتبدأ بالبحث عن «أرض السعادة» في الأرض الجميلة تلك، أرض النوم.

هي أيضاً قد رأت آثار أقدام الجن على الضفة الرملية للبركة الصغيرة، وسمعت ضحكاتهم المرحة ترن في أيكة الصنوبر. أهذا مسكنهم الوحيد، كانت تسأل نفسها، أم أنهم رسل من «الأرض السعيدة»، وقد أرسلوا لكي يبيّنوا الطريق للفانين المؤمنين بها أو التواقين للذهاب إليها.

بدأت «نين - إ - زو» تظنّ أنهم بالفعل كذلك. فصارت تكثر من ذهابها إلى المرج الذي يقع على طرف غابة الأرواح،

وتجلس هناك ساهمة في الأيكة. ربما يفهم الجن، ويخبرون الجن الذين يخدمونهم. ثم ذات يوم سيظهر جني من الأشجار ويدعوها للمجيء. هذا سيحدث بالتأكيد، فكرت، إذا ما تمنّت ذلك طويلاً، واستطاعت منح أمنياتها أجنحة. لذا، جالسة هناك، ألفت كلمات أغنية أنشدتها على إيقاع أشجار الصنوبر حين هزّت ريح الجنوب أغصانها:

يا روح أوراق الشجر الضاحكة

أيها الجني في غابة الصنوبر

أصغي إلى الفتاة التي تتوق

لأرض السعادة تلك

من مثواك في مجاز الغابة الصيفي

سارع بالمجيء إلى فتاتك الحزينة.

أكان من نسج خيالها فحسب، أنها سمعت صدى نهاية كلمات أغنيتها يتردد من قلب الغابة العميقة التي يختبئ فيها الرجال الصغار؟ أم أنهم كانوا يسخرون منها؟

لبثت هناك وقتاً أطول من المعتاد؛ ثم آن أوان الرحيل. فقد تأرجح القمر الجديد منخفضاً في سماء الغرب، وقد رفعت نقاطه إلى الأعلى نحو السماء. قد يقول هندي إنه يستطيع أن يعلق كوز نشوقه عليه، وهذا يعني الطقس الجاف، حين تطقطق الأوراق تحت قدمي الصياد، وتفرّ الحيوانات أمامه، بحيث لا يعود قادراً على الاقتراب منها ورميها بالسهام. و«نين - إ - زو» كانت مسرورة لذلك. في الأرض السعيدة، أعلنت أن لا أحد سيعاني، ولا حياة ستخطف.

لكن أمها كانت ترغب في تزويجها من صياد، رجل أمضى حياته كلها يذبح الغزلان الحمراء في الغابة؛ شاب لا يفكر ولا يتكلم بغير هذا الأمر.

وقد تذكّرت ذلك وهي تنهض من مكانها في المرجة، وتودّع أشجار الصنوبر. لامسها الهلال بضوء خفيف، ومجدداً عادت لها التخيلات. ما هذا الذي بدا يتحرك على طرف الغابة الغامضة؟ شيء يشبه شاباً، أطول من الجن، يلمع أكثر مما يمشي، وثيابه من الأخضر الخفيف تبرز أمام خضرة الأشجار الداكنة. نظرت «نين - إ - زو» ثانية، لكن القمر توارى وراء التلال، وبات كلّ شيء أسود دامساً حولها؛ ولم تسمع أذنها سوى الصوت المخيف.

فسارعت بالركض إلى البيت.

تلك الليلة سمعت من شفتي أمها ما كانت تخشى سماعه منذ أمد طويل. «نين – إ – زو»، قالت الأم، «لقد أسميتك حياتي الغالية وأنت غالية كالحياة بالنسبة إلي. ولهذا أريدك آمنة مستقرة، وأرغب في أن تتزوجي رجلاً صالحاً يعتني بك ويحميك بعد رحيلي. تعرفين من أقصد».

أجابت: «أجل يا أماه، أعرفه جيداً، بقدر ما أرغب في معرفته. إنه يصيد الغزلان، ويقتلها، ويسلخ جلودها. هذا كل ما يفعله، وهذا كلّ ما يشغل باله، وكلّ ما يتكلم عنه. ربما من الحسن أنه على أحدهم فعل هذا، وإلا لتضورنا جوعاً. لكن هناك أشياء أخرى كثيرة في العالم، وهذا الصياد الذي تتكلمين عنه راض بالقتل فحسب».

قالت أمها: «يا طفلتي المسكينة، أنت أصغر من أن تعرفي صالحك».

«إنني كبيرة كفاية يا أمي العزيزة. فضلاً عن أن هذا الصياد الذي تريدين تزويجي منه طويل كشجرة بلوط، في حين أنا لست بأطول من الجن الأقزام. حين أقف مستقيمة تماماً، أكاد لا

أبلغ خاصرته. أي زوجين رائعين سنكون معاً!».

كان ما قالته صحيحاً تماماً. ذلك أن «نين - إ - زو» لم تكن أطول من طفل. كان لها جسد جميل نحيف، يدان وقدمان صغيرتان، وعينان سوداوان كمنتصف الليل، وفمها مثل زهرة المروج. من يراها للمرة الأولى وهي تعبر على الهضاب، تحت السماء الفسيحة قد يحسبها جنية.

رغم كل رقتها وحبها للأمكنة المنعزلة، كانت «نين - إ - زو» مرحة غالباً. لكنها الآن بالكاد تضحك، باتت خطوتها بطيئة وصارت تمشي مطرقة إلى الأرض. فكّرت أمها: «حين تتزوج ستشغل أمور أخرى بالها، ولن تعود تسرح حالمة بين الهضاب».

لكن الهضاب كانت متعتها الوحيدة، الهضاب والمروج المزهرة حيث يتأرج على سويقة نبات طائر القبّرة البهيج. كل عصرية تجلس، مغنية أغنيتها الصغيرة. ثم تتوقف عن الغناء. فالشمس تغرب في أيكة الصنوبر، ويبدأ الطائر الليلي بمناجاة النجوم؛ إلا أن الصورة تكون ناقصة، إذ لن تكون كاملة، حيث لن يكون هناك «نين - إ - زو». ذلك أن يوم الزفاف قد تحدّد. ويجب أن تصبح زوجة الصياد.

في اليوم المحدد لزفافها على الرجل الذي لا تحبه، ارتدت «نين – إ – زو» ثوب العرس. وبدت أجمل من أيّ وقت مضى. وقد توهّجت الزهور الحمراء في شعرها الأسود؛ في يدها حملت غصناً من زهور المرج، المزينة بطلع الصنوبر.

لابسة هكذا ذهبت لكي تودّع أيكتها. وهذا أمر لم يستطيعوا حرمانها منه، لكن في حين مضت مبتهجة، وأخفتها الهضاب عن الأنظار، راح ينظر المدعوّون إلى بعضهم بعضاً مستغربين. هذا أمر ما كانوا قادرين على تفسيره. في تلك اللحظة برزت غيمة فجأة، وحجبت الشمس، فحل الظل مكان الضوء. أكانت هذه إشارة؟ راحوا ينظرون إلى الصياد، لكنه كان يشحذ سكينه على حجر. في الشمس أو الظل، كانت أفكاره دائماً تتبع الغزلان.

مرّ الوقت، لكنّ «نين – إ – زو» لم تعد. ثم تأخر الوقت إلى حدّ أن الضيوف بدأوا يتذمرون. ما الذي قد يكون أخرها إلى هذا الحدّ؟ على الأقل بحثوا في الهضاب، ولم يجدوها هناك. تبعوها إلى المروج حيث قادتهم آثار خفيها الصغيرين إلى الأيكة نفسها؛ ثم اختفت الآثار. كانت «نين – إ – زو» قد اختفت.

لم يرها أحد بعد ذلك. في اليوم التالي جاءهم الصياد بأخبار

غريبة. لقد تسلق هضبة، في طريقه عبر طريق مختصر، ووقف هناك برهة ينظر حوله. وإذا بكلبه يركض نحوه، وهو يئن، وذيله بين قوائمه. كان كلباً شجاعاً، قال، لا يفرّ من دب، لكن هذا الكلب كان يتصرف كأنه رأى شيئاً ليس بفان.

ثم سمع الصياد صوتاً، صوت غناء. وسرعان ما توقف صوت الغناء، ولمح من بعيد هيئة «نين - إ - زو»، وهي تمشي بصورة مستقيمة نحو الأيكة، مادة يديها أمامها. ناداها لكنها لم تسمعه واقتربت أكثر فأكثر من غابة الأرواح.

قال الصياد: «كانت تسير كمن يحلم وحين قاربت على بلوغ الغابة، خرج شاب، هزيل كقصبة لملاقاتها. لم يكن واحداً من أبناء قبيلتنا. لا، لا! لم أر شبيهاً له من قبل. كان يلبس وريقات الغابة، وكان ثمة ريش أخضر على رأسه. أخذها من يدها، ودخلا إلى الأيكة المقدسة. لا ريب في أنه من الجن، الجن الأخضر. وهنا تنتهي القصة».

وهكذا أصبحت «نين - إ - زو» عروساً في نهاية المطاف.


ISBN 978-9948-01-324-2
9 789948 013242


أبوظبي للثقافة و التراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE


كلمة
KALIMA


المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة